غُرباء

قصص قصيرة

بقلم

أمل البنا



بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اسـم الكتاب : **غرباء .. قصص قصيرة**

المـــــؤلف : أمل البنا

رقم الايداع ٢٠١٧/٥٩٢٤

الترقيم الدولى / ٥-٦٨-٦٥٦٥-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى ٢٠١٧



القاهرة : ٤ ميدان حليـــم خلــف بنــك فيصـــل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

الإهداء

إلى ....

الأستاذ الناقد والأديب ... محمد البنا

الأستاذ والناقد الأديب ... محمد أبو الليف

الأستاذ الشاعر والناقد ... حُزين عمر

أهدي إليكم هذا الكتاب

أمل البنا



أصوات

تتوقف لتلتقط أنفاسها اللاهثة، في نبرة تحدٍ لا تقبل الجدل تعلن قائلة: سأجدها بمدينة الأجراس، أجل، لم يعد الأمر يدعو إلى التريث تلقى إلى جانبها حقيبة قديمة، تتناثر على الأرض كتب مدرسية وأقلام، تستغرب أنها لا تخصها وأن الأخرى هي التي امتلكتها يوما ما، تهيم في ذكريات بعيدة، تقتحم اليوم الذي دعموا به الجدران، وأبدلوا الأبواب والنوافذ، ودهنوا الحوائط بالألوان الزاهية، تتخبط في قطع الأثاث لتخرج إلى الباب، تركض في زحفٍ ليلى،من أين تأتي الرائحة؟، حساء جدتها مازال ينعشها

حفنة نقود فوق المنضدة قَبِلها الأب كدية لموت الأم في حادث. تقذف كل الأوراق. تعاود الركض، صوت الأجراس بعيد، تصل إلى حيث يرقدون تحت أعواد الورود الذابلة.

ذباب

يتقاسمن عربة قطار عرجاء تخترق القفار الصاخبة صوب المدينة في عناء يوم طويل، افترشن مقاعد متقاربة ذابت فوقها أنات الاعتراض، حصار من الذباب المتصارع جرى بتنظيم إيقاعي بكل الوجوه، تعرفن في تلك الحملة التي واجهنها لإبعاد أسرابه المتطايرة علي بعض تفاصيل أعبائهن اليومية التي لا تنتهي، خلدن إلى صمت يتسرب للذاكرة، تناوبن حلما ثقيلاً أسبل أجفانهن الغارقة فى غيبوبة نعاس، احتمين بصفير الآلة اللاهث إلى الفردوس العالق بالأفق.

ش: تجتاز رحلة بعيدة، تغادر بعدها وقد طفقت عيناها بدموع استسلام عميق للنهاية، جابت أنحاء القطر تستجدى حل معادلتها الفلكية.. قالوا: النهاية أن تركض لتُقبل قبل الجميع وتحظى الفوز.

ن: تعتصر عرقا باردا يثلج ظهرها، كلما تواجها يغرقها ببذآته، تنظر لأطفالها، الفوضى التي تخلفها الروح العالقة، تبقى إلى الفجر تغترف وحدتها، تسعى لمحافل القضاء تقتبس النور بالأروقة المظلمة وهى تحمل صغيرها.

قالوا: الملائكة تهبط والديكة تصيح

ق: تحاول إيجاد حل للمعادلة العبثية، تسعى لأعوام مضت لإثبات أحقية تعيينها كمعيدة بعدما استبعدوها لتعيين أحد أبناء أساتذة الجامعة.

قالوا: أن تجد حلا لمعادلة عبثية أن تسلك نفس العبث

سلك القطار المنحدر ليصل المدينة بعد الغروب، استيقظن، بينما الذباب قد افترش المكان للمبيت.

اختيار

يجلس فوق مقعده المهتز مراقباً المارة بالطريق من زجاج نافذته المغلقة، في نوبة أسى يستطلع المدينة الغارقة في زبد المطر الصامت، تنهش في قلبه حقب من الماضي البعيد مازالت ماثلة بحفلاتها الصاخبة؛ يحمل نفس افتراضات شبابه في ذروة الخريف من عمره. تعثر في خطوات حياته الأولى، ليحسم حقيقة النزاع بين الحبيبة وابنه صاحب العمل، يرفض الإعلان عن تنازلاته من أجل الصعود، ارتقى كالبرق.. تعثر في مضارباته، واستسلم لمعاقرة الخمور والندم للاختيار..

دخلت عليه في سورة غضبها، تواصل الدوران حوله بطنينها، تستفز ظله الشاحب فوق مقعده لينظر إليها، ألقت في وجهه المطرق ورقة وهى تصرخ قائلة: عليك الذهاب لهذا الرجل، فقد أخبره أبى عنك وسنرى ما يمكنه أن يقدم لمساعدتنا

نهض، ارتدى معطفه، وذهب إلى عشيقها

الحافلة

قالت لزوجها وهى تلقى برأسها على كتفه: يبدو أن القمر يسعى للاكتمال

قال: أو ربما يمضى ليتلاشى من جديد

انتزعت نفسها وألصقت وجهها بنافذة الحافلة في غضب لتقول: لماذا لا ترى الأشياء جميلة كما أراها؟

– ما الشئ الجميل في سماء داكنة الغيوم وقمر ينمو ويحتضر كل شهر من جديد؟!

– ألا ترى به جمالا، أو يحدثك هسيس الضوء الشارد بالأفق بشئ نحونا؟

– لماذا تقحمين نفسك فى عادة فلكية وما هو إلا صخرة كبيرة؟

– أنا أتحدث عن الجمال والمشاعر، وأنت تحدثني عن عادة فلكية وصخور؟!.. ألا ترى كم أصبحنا غرباء لا نرتوي من هوانا القديم شيئاً؟!

- يبدو أنك قد فقدت صوابك.

- فقدت صوابي أم أنت الذي فقدت قلبك وروحك فلم تعد تشعر بالحياة ومن يشاركك بها؟

- كل هذا لأنني لم أوافقك فكرتك نحو اكتماله، انظري كيف تبحثين عن خلق مشكلة من لا شئ.

نظرت إليه طويلا وعادت إلى النافذة التي ينتحب المطر فوقها... مضت لحظات، استغربت أن تقذفها الذاكرة لهذيانها الراكض خلف الفراشات بالحقول الدفيئة...

تسمرت الحافلة واضطرب كل ما بها لهذه الوقفة المفاجئة والشجار الذى ارتفع في مقدمتها بين السائق وإحدى الراكبات.

- السائق محتدا: لماذا تشغلين بحقيبتك هذا المقعد وأنت لم تدفعي سوى ثمن تذكرة واحدة؟

السيدة: أنت لم تطلب شيئا

وهل من المفروض أن أطلب منك ثمن إشغالك المقعد وغيرك يقف إلى جوارك ولم تعيريه اهتماما؟!

- تريد أن أدفع لك تذكرة أخرى، على الحذاء أيها الحثالة الذي لا يعرف كيف التحدث مع سيدة محترمة.

ارتفعت الأصوات بينهما تحاول التهدئة.

- أنتِ سيدة محترمة! أم متبلدة لا تعرف للذوق والإحساس مكاناً؟!

علا الشجار والأصوات لتقاطعهم في سورتها: سوف أجعلك عبرة أيها اللعين، فأنا أعرف أين تسكن وأهلي كلهم يعملون بالأمن العام، سأقضي على مستقبلك، سترى هذا وستذكر كلامي عندها.

توقف كل شيء، عدا الحافلة التي عادت للمسير...

نظرت إلى زوجها الذي غاب في سُبات، لجأت إلى النافذة من جديد، والتي كانت لا تزال تحتفظ ببقايا أنفاسها العالقة على زجاجها.. نظرت إلى ضوء القمر الذي أعادها للقائهما الأول.. الشاهد الذي يكتمل فيحيد عن صوابه ليحنث باليقين، أو هكذا كانت تظن أنه اليقين.

توقفت الحافلة فجأة مرة أخرى، وأخرج السائق رأسه هذه المرة من نافذتها مخاطبا شخصا ما بحدة خارجها.

- السائق: أنت تقف في طريقي وتركن سيارتك في المخالف

- أُنزل بضاعة للمحل وليس لك شأن فيما أقوم به

- أنت تعترض الطريق ولا يشغلك كل من جعلتهم يحيدون عنه

- اقتفى أثرهم أيها الغبي وإلا أوسعتك ضربا

- أيها الوغد لن ترغمني على شئ وسترى.

تجمع بعض الركاب والمارة بالطريق ليحولوا بينهما حيث هرع الرجل إلى داخل محله ليخرج شاهرا قطعة معدنية حادة حاول بها أن يقتحم الحافلة.. دقائق مضت في هذا اللغط البغيض ليعاود بعدها السائق الالتفاف كالآخرين متجاوزا العربة التي تعترض الطريق.

عاود الصمت المكان وعلت حالات الشرود الكثيرين من الركاب. عجزت أن تستعيد من ضوء القمر حلمها القديم، فارتجفت وغفت... بدأت ترى الحافلة تمضى فوق جسر زلق تحاصرها الأمطار التي بدأ وقعها يشتد في لحظات قليلة... رأتها تهوى إلى النهر الذي يرتجف هوالآخر تحتها، تحاول الإفلات عبثا، تبحث عن يديه .. أي عناق قد يلصقها إليه في برزخ الأبدية.. لا شئ.. لا شئ غير الماء.

أفاقت مذعورة على هاتف زوجها الذي كان يلهو ببعض ألعابه.

أغلقه وهو يقول: عزيزتي، قاربنا الوصول فجمعي أشياءك لننزل.

قامت متعثرة

قال للسائق: أرجو أن توقف السيارة هنا

السائق: أنا لا أقف بالسيارة إلا في محطاتها وليس في أي مكان يريده الركاب

- معذرة لك، فزوجتي مريضة، وقد أحضرتها اليوم من المستشفي، ويبدو أنك رجل ذو شهامة وخلق.

نظرت إليه وهى تبتلع كذبه، بينما السيارة تقف إلى جانب من الطريق

هبطت فوق سطحه الصخري البعيد، حيث تلاشت ابتسامته التي أرسلها قديما إلى الأرض.

نبوءة

اليوم أدركت أن المصابيح تعلو رأسها.. في طريق قاحلٍ تقطع خطواتها وهى تردد أبيات شعر مشفرة.

قابعٌ فوق النجوم.

راكضٌ تحت الثرى

ظلٌ أنا في المنتهى

تقاوم عمراً طويلا، تنفلت عقوده علي النبوءة التي أشار لها العراف يوماً بالكهف البعيد، تنتزع أوراقه المكتوبة بأحبار سحره، تدسها فوق اللهب (نصف الحياة بالغرفة الحارة، والنصف الآخر هذيانٌ يملأ صندوقا)، تنتظر تفسير حلمها اليومي، تقضى أياما في التحضير النهائي للسفر، تحاصرها عذابات واقعها الفلكي، تشرب فنجان قهوتها الثقيلة قبل أن تطل إلى الأفق، ينقشع ضباب الصبح ليحل محله فضولها الهائل، تصعد الطائرة، تستقر بجوار النافذة تغترف السحب، تردد أبيات شعره المشفرة وهى تخلد إلى نومها الأبدي.

قطـار

تبحث عن ظله في الطرقات، انتظرتـه، أوقـات تمـر، القضـبان أسيرة لسيل من القطارات، بدا لها في نهاية الممر مبتسما، تصافحا، وانطلقا إلى قطار قادم، جاهدت في البحث عن بسمة تُزيل حيرتهـا، غمرته بأسئلة في صمتها، فجأة اهتزت عجلات القطار بشدة و انكب علي أثرها الكثير من الركاب على أرضه، توقف، هرع الكثيـرون إلى الخارج، أنهضها شيخٌ سقط إلى جوارها، وطفلٌ قد بترت قدماه.



استيقظت المدينة الضائعة في ضجرها الصيفي، تمكنوا بالأمس من تجفيف ميدانها العتيق عقب انفجار ماسورة مياه، الجو رطب إلى حد يمكن معه أن تجمع أنفاسك التي تتبخر فوق رأسك، تنمو بعض الطحالب معربدة في شقوق الأرصفة، يستكشف المارة زوايا العربات المتحركة من خلال المدقات التي تتقاسمها الطرق، إشاعات كثيرة عصفت بذهنهم عن شركات سوف تأتى يوما لرصف الطرق، أشد الإعلانات كآبة فوق الجدران (توجد أحواش ومقابر للبيع).

طوفان من البشر يهبط من قطار يتأرجح، يتمكن الميدان من امتصاصه في لحظات، أطفال لا ينتعلون الأحذية، نسوة هدأ جمالهن في سمرة الشمس، رجل رث الثياب ترتعش يداه بحركات لا إرادية، شيخ تبرز عظام وجهه النحيل، أشباح منهم تموه كجرذان في كل الطرق، يمضى النهار وقرقعة القطار تفضي بوفد جديد، تنسحب

الشمس، يغيم الطريق.

***

في بيوت ترفل بالثراء خلف أسوار المدينة، جلس رجال الحاكم يتقاسمون حصاد يوم جديد.

العاصفة

تمتطى معه صهوة جواد يجوب المروج، ليهبط بهما إلى عين الماء التي تنساب بين الصخور، ترشف حسوات ماء بارد من راحتيه، تلمع الشمس فى عينيها وفى قطرات الماء، تعلو ضحكاتهما المحمومة وكل منهما يدفع بالماء في وجه الآخر، تركض صوب نجمة الشمال، فيلحق بها و يدور في عذوبة وهو يحتضنها ، يسطع الوهج في عينيهما، اقترب من شفتيها، و اقتربت منه.. تتذكر.. تلقى برأسها فوق كتفيه، يفترشان الأعشاب مراقبين النجمة التي ترحل بالأفق....

تشتهى كوب الليمون البارد معه في شرفة الحديقة، ألقيا بنفسيهما فوق مقعدين متقاربين، تسامرا في كل أحداث اليوم الصاخبة، يذوبان في سحر المساء كقطع الثلج التي تتصادم في كأسيهما، تتخلل أنامله أصابعها.. تتذكر.. تفلته من يديها، يجلسان ليراقبا في صمت الثلج وهو يذوب...

تجلس أمامه على طاولة مكتبه، يستمعان لأغنيتهما المحببة وهما يتحاوران في أحد الكتب التي قرآها مؤخرا، يلمع بريق الإعجاب في عينيهما، بينما الأغنية تنهي مقطعها الأخير ..

تجلس وهى تسرد وهم أحلامها على صفحات الفيس، لتفاجأ بزوجها يقف إلى الخلف منها، مراقبا لأصابعها الواشية، أحاطها بكل أوصاف الخيانة وهو ينهال عليها صفعا وركلا، تكومت تئن فوق الأرض بلا مقاومة.. تصحو فزعة على صوت صغيرتها بالحجرة المجاورة... تتحسس فراشها البارد.. كل شئ في مكانه، عدا أنفاسها التي تتدفق هربا من الموت.. تشعر أوجاعا لا تعرف مصدرها.. يعلو صراخ طفلتها، فتهرع تأخذها في أحضانها

- ندى، ماذا بك يا حبيبتى؟

- خائفة يا أمي، خائفة، شخص له أنياب كان يطاردني

- لا بأس يا حبيبتي، إنه مجرد حلم، وأنت الآن معي.

تهدهدها في حنو.. تعود إلى النوم.. أبقتها بين ذراعيها وهى تتأمل وجهها الذي ازداد إشراقا.. تتذكر نهاية حلمها البغيض وهى تنظر للساعة المعلقة على الحائط، تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل وكعادته لم يعد بعد.. تشعر بغصة أعلى معدتها.. أعادتها إلي الفراش

وهى تحكم الغطاء حولها.. ظلت تراقب عقارب الساعة التى تمر أمامها.. تزداد الآلام بمعدتها، فتسرع إلى المرحاض تفرغ ما فى جوفها فى نوبات قيء متتالية.. تفتح صنبور الماء، يلتقط وجهها الشاحب بالمرآة؛ الرائحة البغيضة في طيات ملابسه، آثارغريماتها العالقة على جسده وثوبه، همسات رنين هاتفه الذي يواصل به إمدادات خيانته لها..مذعورة تهرب من فوق البركان.... أعادوها إليه.. (فلتغفرى.. بيتك.. يعود إليك وحدك..) (من يومها، صرت إلاها لا يعرف غير المرارة والمغفرة) .. تسمع صرير الباب يغلق (إنه هو) .. يترنح وعلى وجهه مس الشيطان.. ترنو إليه في صمت.. تمضى إلى مكتبه تلتقط شيئا ما ، خرجت واقتربت منه حيث وجدته.. صفعته، أفاقته الصفعة، غير أنها لم تكن في قوة صفعات حلمها، وقبل أن يبدي كلمة لها، تراجعت لتوجه غدارته إلى وجهه.. نظر مذعورا إليها، ليعود أدراجه للطريق.

شمس

أودعته حلمها فوق جزيرة النـور، حيـث ترقـد الأبجـديات في متاهات بعيدة، بحثت بشفتيها عن حرفين أو أكثر، تلعثمت، أشارت بيدها إلى قلبها، تلفت حوله.. امتطى صهوة جواده صوب الشمس.

أرض الذكريات

تقلّه آلة الزمن إلى البقعة التي يرغبها، حيث الذكريات التي تتثاقل في جنة رطبة، يغدو أمام عينيها كساحر يتمتم بكلمات غير مفهومة، ألبسوه درع محارب، واقتادوه إلى ضفة النهر حيث تنتظره كتيبة الإعدام.

المستعار

طوت المسافات إليه، تبحث عن ظله أسفل الشجرة التى روت حبهما منذ عام، تتردد، ترتعد الكلمات بشفتيها، يَقْبل ، يمسك بيديها، تعتصرها نسمات الحب بينما تقبع الأخرى بانتظاره بالضفة المقابلة، احتضنها مشفقا على وجومها البالغ، وبحرصه المعهود مسح على شعرها المتهدل، رفعت وجهها ناظرة إليه، تتفحص المسافات التي تختنق بينهما قائلة : أخبرني الطبيب اليوم أنني أنتظر طفلا.

سحب ذراعيه قائلا : كيف؟ ألم تخبريني أنك عاقر؟

قالت: حدثت المعجزة.

تلاشى إلى الضفة الأخرى، حلقت فوق جدران منزله الراكد، توصلت للضوء الباهت المنبعث من غرفته، وجدته حيث هالة الخوف مازالت تحيط به، هاتفته قائلة: الحمل، كاذب.

حــرية

يستند إلى الحائط محدقا بالمرآة أمامه، يخترق الظلام المنبثـق من حدقة عينيه، شئ ما في كل صندوق أسود، في كل عتمـة لا يلـج الضوء إليه، صرير الأبواب العالية تدفعـه الـريح، يلـتقط المـزلاج حراس الأبواب ليحكموا غلقها كلما أتى وفد جديد... ينمو الظلام في حدقتيه متكاثرا.. أسداسا، أخماساً، أرباعاً، يغرق.. يغرس قدميه فى ممرات العتمة، سراج نحيل بالأفق يخطو كأدخنة اللهـب، يسـعى متوجها إليه، تلتقطه أيديهم، لا يفلتونه... أوسـعوه ضـربا وركـلا، أطفأوا جمرات اللهب وأصوات العصيان في جسده، سـقط كغنيمـة حرب فى سباق عراك أزلي، أغرقوه بأرطالٍ من الماء البارد، وسحبوه كقربان هدية إلى كبيرهـم .. ألقوه على مقعد متهالـك واسـتجوبوه.. ساعات.. أياما .. شهورا في كل مرة إلى حجـرة العـزل يزجـون بـه منفردا.. يجلس إلى رفيقي المنضدة، يوسوس له أحدهما قتل نفسه، تمتزج الفكرة بدمائه المهدرة يوما بعد يوم، يشتهى لحظة الخلاص،

بينما الآخر يجلس على وجهه ابتسامة موت ساخرة.. يغمض عينيه هربا من صاعقة الكهرباء التي تسرى في جسده المنتفض... يفيق إلى المرآة الشاخصة أمامه.. تعكس صورته الشبحية بإحدى المصحات النفسية.. مشعثا، يقرض أظافره، يختفي في زوايا جسده المنحنى ... حول المنضدة افترش رفيقا العزل معه الغرفة، الأول ينفث في أذنيه، والآخر يبتسم بازدراء.. يتحسس في خلسة ملعقة الطعـام في جيـب قميصه.. يغمد حافتها المدببة في رأسه المبتسم، تهوى بنافورة دماء فوق المنضدة ... يرتعد، يمسك بأعمدة فراشه صارخا.. يعيد النظر إلى الدماء... لا شئ .. لا شئ غير الملعقة المستقرة فوق المنضدة.. تلفظ أنفاسه المتحشرجة ح..ر.ى...ة.

الناجون فى عدن

فوق تبة عالية، نصب أثرياء العاصمة قصورهم الشاهقة. مائة عام أو يزيد سبقهم لهذا الفضاء أجدادهم، تضاءلت الأرض القاحلة وأزهرت حول القصور جنات ترتوى بأنهار معلقة، تأتى من الوادى البعيد، شقوا جنبات الجبال وأقاموا مدينة الألعاب، أطلقوا ناطحات السحاب، صارت مدينتهم أرض النور والسماء.

طالب عمدتهم منذ أيام باجتماع عاجل لمجلس المدينة، غير أن العدد لم يكن كافيا لعقد اجتماع على هذه الدرجة من الخطورة التى أشار لها. ضرب موعدا آخر تكررت معه نفس النسبة الضئيلة، مما دعاه لأن يقسم بأنه سيقوم بحرق مدينة الألعاب إذا لم يحضر أعضاء المجلس بأكملهم، حدد الموعد، وجاء الوقت ثقيلاً وهم يتحاملون للذهاب.. القاعة تحوى صفير ريح دائم يتخبط فى جنبات الجبال، بناؤها عتيق الأثر كمعبد السيرابيوم الشاخص دوما لبحرٍ هائج.. نظر إلى الجموع التي امتثلت وهو يتوسط المنضدة في صدر المجلس،

همهمات تسرى بينهم لتلك الفعلة المشينة التي افتعلها ليأتى بهم على هذا النحو.. تبادل معاونوه أوراقا فوق المنضدة ليدير الميكرفـون بعدها قائلا: رجاء أن تتقبلوا منى العذر للطريقة التى جمعتكم بها أيها السادة، فالأمر حقا جد خطير. ربما تساءلتم حول ماهية الأمر الذى جمعناكم إليه، فاليوم لسنا بصدد قضية نقترع عليها، أو صرح جديد نبغى إسهاماتكم فيه.

اندفع أحد الحضور من مكانه وهو يشيح بذراعه إليه قائلا: لماذا كان الاستدعاء إذا على هذا النحو يا جمال بيه؟!

تداخلت الأصوات واصطخبت مما اضطره لأن يقرع بناقوسه مرات هدأت معها القاعة نسبيا، وقف ممسكًا بالميكرفون..

- جمعناكم، جمعناكم، لأننا باختصار نحتضر يا سادة.

قال أحدهم: من الذي يحتضر؟ فلتفصح

عاد إلى مجلسه وهو يضع براحة يده فـوق الأوراق المطروحـة أمامه قائلا: هذه الأوراق ، تسـتعرض الحالـة المَرضـية، والأمنيـة للأعوام العشر الماضية بمدينتنا..

تصفح الأوراق وهو يتابع: تشير البيانات الصحية هنا إلى تفشى الأمراض الخبيثة وأمراض الكلى بنسبة غير معهودة منذ أجيال. ثـم

جاءت الحالة الأمنية للمدينة، فوجدناها لا تقل خطورة عن سابقتها، حوادث حديثة العهد علينا .. سرقات بالإكراه، اقتحام منازل، اختطاف أطفال وطلب الفدية. وصل الأمر لقطع الطرق وقتل الأبرياء.. وصلنا لمرحلة يجب أن ندق لها ناقوس الخطر، فلسنا أغلبية ولا يحتمل عددنا كل هذه المصائب.

قال أحد الحضور: حوادث كتلك هي تقصير وإدانة للأمن أيها الشريف، فهل المطلوب منا القيام بحماية أنفسنا؟!

قال آخر: وإذا قمنا بحماية أنفسنا من اللصوص والقتلة، فكيف نحمى أنفسنا من أمراض كتلك؟!

استدار عمدتهم إلى شاشة عرض كبيرة مثبتة إلى الخلف أشار إليها بعد قليل قائلا: قبل أن نذكر الحماية علينا أن نعرف الآن السبب فى كل ما نعانيه... ما سترونه على شاشة العرض، لهو جهدٍ مضنٍ بذله خالد بيه.. طاف بظاهر الأماكن فى الوادى، وعاد محللا لكل الصور التى شاهدها، والتي سنبدأ عرضها الآن.

أُطفأت الأنوار.. خيم الصمت والظلام فوق الرؤوس، بينما حجبت الريح الساخطة فضولهم الهائل.. تحرك خالد بيه نحو شاشة العرض، وبدأ فى شرح كل صورة تم التقاطها.... شوارع تموج فى مخاض القمامة المبعثرة... أطفال بأعداد هائلة تزحف نحو بنايات

سبخة للدراسة.. حافلات تخفى ملامحها البغيضة البشر التى عجزت عن امتصاصهم.. باعة يفترشون الأرض والحارات الزلقة.. صخب واحتدام.. أسلحة بيضاء.. النهر الخالد مرتع للحيوانات النافقة وصرف المدن.. أُسدل الستار على الصفحة البائسة وسط وجوم الحاضرين، وأُعيد الضوء.

قال أحدهم:.. كيف وصل هؤلاء إلى هذا الحد؟!

قال آخر: كل هذا العبث حولنا ونحن فى غفلة عنه؟!.. ماذا سنفعل؟، نحن حقا فى خطر جسيم.

العمدة: هذا هو بيت القصيد، ماذا سنفعل؟

قال أحدهم: وماذا إذا تكتلوا ضدنا وهاجمونا؟

خالد بيه: بدراستى لطبيعة العزلة التى قادتهم إلى هذا الشكل من الحياة، يمكننى القول أنهم أناس جبناء، تشغلهم الحياة والخوف منها أكثر من أى شئ.

قال أحدهم: وكيف تضمن أنهم لن يعبروا أسوار الخوف يوما نحونا؟

قال آخر: نلهيهم ببعض الصدقات التى تُجمل صورتنا بأعينهم

قال آخر: هذا ليس حلا لمثل هذا الخطر

العمدة: يمكن أن نقول أنه جزء من الحل.

قال أحدهم: وما الحل الأمثل لديكم؟!

خالد بيه: سنتفق مع شركات أمن عالمية لبناء أسوار فولاذية حول المدينة، وسنجلب أفراد حراسة وكل من يقوم بالخدمات من الخارج، وبذلك نكون قد حققنا الأمن لدينا.

قال آخر: والأمراض التي يجلبها النهر، ماذا ستفعل حيالها؟

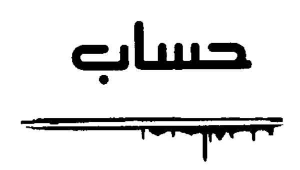
قال أحدهم: بما أننا سنأتى بالأمن من الخارج، فلنأت بالطعام والماء أيضا.

سادت لحظات من الصمت. تبعتها علامات رضا كست الوجوه المتأسدة ، لينفض الجمع على هذا العمل الدءوب.. سنوات مضت وهم يحاولون الوصول إليهم عبر أنفاق نقبوها.. فى جوف ليلة شديدة الصمت، استيقظ الجميع على انهيار أرضى رهيب جرف التبة والجبال المجاورة فوق المدن القابعة بأذنابها.. فى غبش الفجر، كانت أسراب الطيور المهاجرة تطلق نشيد الرحيل فى غيوم الأتربة الهائلة، لعالمٍ يسعى نحو الخلود والفناء.

عجز



فوق تبة عالية، تمسك بمظلتها الزرقـاء، تتعلـق فـوق حوافهـا قطرات المطر التي تتثاقل للاندفاع في توحدٍ منهمر، ترتجف لسماع قطار المساء، تشفق على نبضات قلبها المتلاحقة.. الشك واليقـين (قد يبدو من بعيد، أو تخفيـه كرمـات العنـب المـدلاة)، فوجئـت بالمسافة الهائلة التي تفصلها عن رصيف القطار، هكذا وعدتـه أن تلقاه.في نفس المكان الذي تطارحا الحب فيه... بـدأ قطـار الفجـر هدير صيحاته الجديدة لترتد عائدة تنتزع السـكون، بينمـا يعكـس القمر ضوءه على خصلات شعرها الفضي، وهى تمضى مستندة على عكازها الخشبي.



حساب

أصابه بلكمة بعد أن طرحه أرضاً ، قال وهـو يمسـكه محـاولا التحكم في حركاته الهستيرية: أيها الأحمق، ألم تلحظ القطار الذي كاد يدهمك ؟!

ظل ممسكا به إلى أن هدأ ثم تركه، بينما كانت عيناه الغارقتان في حلم بعيد تستفيقان إلى كلمات منقذه، ونفير القطار الـذي يتهـادى وهو ملقى إلى جوار قضبانه.

يلتقط أنفاسه لحظة خروجه من الباب، تملكته نفس القشعريرة التي أصابته قبل أن يخرج (حقاً، الزمن يمضي ليعود مـن جديـد)، كانت تلك هي كلمات جده التي قالها له بعـد أن أعلـن لـه إشـهار إفلاسه، مضى متعثرا صوب القطار، يتذكر نهاية طفولتـه لحظـة أن تركه أبوه ليعربد بالحياة ، ملامح الشـقاء التـي اعتلـت وجـه أمـه، ضربات الحظ التي تكاثرت بها أمواله، دخـول والـده المفجـع إلى مكتبه ذات يوم طالبا الغفران والمال معاً، مرارة حقده الدفين التـي

دفعته لطرده.

نهض ورأسه يـدور وهـو يتمـتم قـائلا : سـأذهب لابنـي الآن بمكتبه.

بعث

يستيقظ على وهجها بالغرفة الحارة.. يلتقط أنفاسها المتجمعة فوق رأسه .. يلزم فراشه كل ليلة في وضع الجنين.. يتحسس أجزاء جسده المبللة بقطرات عرقه البارد.. تتردد عيناه الجاحظتان في حديث الصمت بين الأركان الناتئة.. تخرج الكائنات محلقة منها تنهش جسده المتكوم علي مخاض ميلاده الأول موجهة إليه إصابات نافذة.. يزوم في صرخات مكتومة، بينما تتعامد ذراعاه على وجهه من اللكمات المتواترة.. يعجز عن الإفلات.. يتمزق في أصباغ أملاحه ويطفو... تلتقط إشاراته الفرضية، فتقتحم الميدان وتنجو بالفريسة الضائعة.. يتذكرها، نفس القسمات التي ذابت يوما تحت الثرى.. هي الربيع الذي أمسى بعده قيظ الكرى.. تتحسس قنينة عطرها، وتسكب منها قطرات.. نهض وأجلسها، وافترش الأرض تحت قدميها.. داعبت خصلات شعره الهائج ساعات الليل، بينما اكتفى بالإبحار فى حدقتيها الشاخصتين.. نهضت مع ضوء الصباح المنسل

من النافذة لتختفى .. منتشياً وقف لتمكنه من استعادتها مرة أخرى.. اتجه إلى النافذة يفتحها، فابتلع نسمات الصباح الباردة على وجهه الراقد في عرقه.. يستبدل ثيابه،و ينتصب أمام المرآة.. تسمرت عيناه على الشيب الذي اشتعل بخصلاته التى لمستها وهو ملقى فى حجرها.

الفنار

تزحف كتل السحب الداكنة فى موكب جنائزي، بينما الريح العاصف يقذف الموج ليضرب الشاطئ والصخور المتاخمة للفنار، مر بيده المرتعشة عابرا الرواق المؤدى إلى الحجرة التى يجلس بها رفيقه، وجده مايزال يبذل جهدا مضنيا لإصلاح جهاز الراديو الذى بدأ يأتى بأصوات صفير الموجات عبر الأثير، شرع يصدم بأجزائه المفككة بالمنضدة فى جلبة وسخط قائلا: لا فائدة. نعم لا فائدة.. اللعنة، سبعة أيام فى هذا الدوام اللعين، لا أسمع فيها لإنسان، لا أسمع فيها لإنسان غير صليل الريح، وطبول الموج التى تبتلع الشاطئ وأنا عالق هنا.. وأنت أيها الأبكم الذي جاءوا بك إلىّ، ألتشاركنى الأفق البغيض لنهدى السفن؟، أم لأشاركك اللعنة التى أصابتك صغيراً؟.

يزوم قاذفا بالأجزاء أمامه إلى الأرض، يعدو بعدها مسرعا نحو النافذة الزجاجية يفتحها، يتضخم فى أذنيه صوت الريح، يطبق بكلتا

يديه على أذنيه صارخا: أريد صوتا ينطق إلى جوارى، صوت ينطق إلى جوارى.

وكشبح مغارى خمدت طاقته بالكهوف الغارقة يرتمى على الأرض، بينما يداه تتعلقان بالنافذة أعلى رأسه.. يقف الآخر مبهوتا ومراقبا له، بعدها اتجه فى هدوء إلى النافذة يحررها من يديه ليغلقها.. يتراجع مثقلا إلى المنضدة يجمع فوقها الأجزاء المبعثرة، ينظر إليه بطرف عينيه قائلا: أيها الأبله، ألم تفهم بعد أنه لم يعد يجدى معه شيء، يبدو أنه لا عقل لك أيضا.

يعاود جمع الأجزاء الملقاة، بعدها يذهب إلى النافذة الخلفية، يلصق وجهه بها، ويتتبع أضواء الميدان البعيد والمنازل الملاصقة له، تسرب إلى قلبه أصداء مرارات بعيدة؛ مهرولا يتراجع كلما اجتمع مع الصبية فى الساحة للعب، يطبقون بلاذع القول عندما يتقدم بأهدافه عليهم، فلا يجد غير الانسحاب سبيلاً، يتذكر اليوم الذى فاضت دموعه وهو يرى الفتاة التى أحبها تعبر الطريق فى يد أحد أصدقائه، ذهب بعدها إلى الشاطئ يلقى أحجاراً فى وجه الريح العاصف، غامت عيناه فى رذاذ الموج، كلما أطبق على حجر،يستمع إلى صوت الصبية الملاحقين له وهم يسخرون من عاهته. وقف متجمداً لاكتشافه ذلك الشخص الذى يختفى رويدا وسط الموج،

تلفت حوله ، وأخذ يعدو باحثا عن إنسان يستنجد به، عـاود النظـر إليه، فلم يجد غير الموج..الموج فقط.

أفاق على صرخة هستيرية لرفيقه جعلته يركض إليه ليتسمر جوار المنضدة المتناثر عليها القطع المفككة وقصاصات ورق الجرائد، وجده يقف أعلى النافذة التى فتحها، يـأتى بحركـات مـارد تـنفض الريح ثيابه الخرقة قائلا: أتعلم أننا لا شئ، لا شئ أيها الأبله الأبكم

أخذ يضحك فى هستيرية متنامية اصطكت معها أسنانه المرتجفة مع صليل الريح.

قال: خائفٌ أنت مثلى، أرى ذلك فى عينيك .. أتفهم ؟، وكيـف تفهم وأنت مسخٌ آخر يجبن بالحياة.

هم للانطلاق إليه، فاستوقفه قائلا: إياك أن تتقـدم خطـوة وإلا قذفت بنفسى

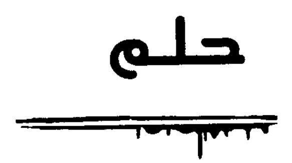
أخذ يضحك صائحا: تراك تشفق علىّ، أم تشفق على نفسـك إذا وجدونى ملقى على الصخور هنـا..؟ أيهـا الأبلـه، أنـت حتـى لـن تستطيع الدفاع عن نفسك.

دفع النافذة إلي الخارج وهو ممسك بها، واختفى للحظة عـاود بعدها البزوغ فى جلبة شيطانية.

قال: أتحب أن أعاود اللعبة؟. حسنا، سترى أى مصير سوف أصحبك إليه أيها الرفيق.

ترنح إلى الخارج مرات، وفى كل مرة كان يضحك ضحكته الصاخبة التى تنقلها الريح كلما مضى مع أزيز النافذة.

لحظات انقضت ، ارتدت بعدها النافذة إلى مكانها بقوة الريح، انطلق إليه عبثا يحاول الوصول إلى صوت له، لا صوت غير الريح .. همّ إلى هاتف العمل يمسك به. بينما إشارات سفينة بالأفق تقتحم الظلام.



في بيت مستعار أضاءت شمعتها الذائبة بحجرة الطعام، وضعت فوق المنضدة أصنافا تفننت في صنعها، خضبت المناشف برائحة الورد، ونثرت أوراق الريحان، تترقب وقع خطواته فوق الدرج الخشبي، ترتبك للصوت المنطلق من جرس الباب، فتهرول إليه، تتعلق بعنقه، بينما يرفعها ويدور بها مرات أفردت ما بتنورتها من ألوان زاهية،تطلب منه وهو راقدٌ إلي جوارها أن يتذوق طعامها فيمسك ملعقته، يأتيه رنين هاتفه، ينهض متذمرا، بينما حفيف صوته الخافت يغمرها بالظنون، رجع يلملم ثيابه ويقول: حبيبتى، أمر عاجل، يجب أن أعود.

همت بحركة اهتزت معها شفتاها ، وضع سبابته علي شفتيها وداعبها قائلا: فيما بعد، سنتحدث فيما بعد.

سكنت تقتفى أثره وهو يمضى، بينما كانت في زاوية الحلم تذوب شمعتها بلا ضياء

تحت الرماد

هناك بين الأحجار أحاديث تُروى وأخرى يكتنفها الصمت، تستند براحة يديها على الجدار الذي يحمل الحروف الأولى من اسميهما، تفترش الأرض وهى تعبث في صندوق الألعاب؛ هيكل سفينة شراعية، دمى العرائس ممزقة الأوصال، حيوانات الغابة والخيول الراكضة.

ترى خطوط الضوء المنسل من النافذة الخشبية وفراشات شعرها الهائج كلما تدافعت الأرجوحة بين الأغصان، تسمع وقع أقدامهما فوق الأوراق اليابسة.. أحجار النرد على الطاولة الخشبية.. الشجار على علبة الألوان وقطع الحلوى.. الزجاج المتصدع بالرواق. تترك قِدر الطعام فوق الموقد، وتلهث خلف النوافذ تبحث عنهما.. تتوعدهما بالحرمان من قصص المساء، فيختفيان كعقلتى إصبع بالماء الفرات، ثم يظهران كقيثارة يستغفران.. تنزلق علبة الموسيقى ذات النوابض من يدها، تأتى بأصوات مفككة.. مواء

قطط أسفل الجدار.. تهاوى سلال المهملات.. صرير باب الحديقة الخشبية تدفعه ريح عاصف جعلته يتخبط (يبدو أنني لم أحكم غلق باب الحديقة، غريب أن تأتى الريح في مثل هذا الوقت من العام).

يغمرها شعور غامض، تحس أن قلبها يحوى هواء بارداً، فتحاول النهوض من على الأرض، تكبو، تقاوم، تتمكن من الوصول إلى النافذة.. ترى حديقتها وأسوارها البالية والأسباخ المنتشرة بأرجائها.. تمر الأفكار والصور بذاكرتها؛ الكون الغائب كالشمس التي تختفي خلف التلال، فزعها بعد عودتها وهى تحمل أكياس الطعام، ألسنة اللهب تلتهم النوافذ والأبواب ، تركض، تركض وهى تحترق...

يدخلان عليها فى ثياب نورانية، تكتشف أنها تلبس مثلهما

- أماه لم أنت هنا؟

- لا شئ أحبتي

- افتقدناك، فلا تغادرى فراشنا مرة أخرى

ترتخى يداها من على الجدار، تحتضن الحرفين وتغادر بهما المكان.

حذاء

في ليلة شديدة الظلمة لا نجوم بها، يتنفس أسن مستنقع لا حدود له، يتذكر حديثا لبعض الغجر، تواصلوا معه يوما عندما سلكوا ذات الطريق، أخبروه كرجال حملة تدق أبواب حصنٍ منيع (ستصبح يوما ملكا لهذه البلاد، ويعم الخير وادينا، ونهتدي بك لأسوار عاد) نظر إلى كفيه يستطلع نبوءتهم فى خطوطها..

يوما بأحد المتاهات ينتعل حذاء قناص، يحملونه إلى القصر ويلبسونه التاج... أول مرسومٍ أصدره: (أغلقوا محال الأحذية).

كنا غرباء

جلست إلى نفس المقعد الذي ألفته سني عمرها البعيد صوب البحر .. تمعن النظر إلى الفراغ الذي يحيط بها.... يقذف الموج الأصداف إلى الشاطئ في هذا الوقت، وعندما يحين الصيف يتخاطفها الصبية، أو تختفي كأثرٍ تحت الأقدام.. تشعر بنشوة من امتلك البحر وحده، وأنها كماردٍ يستوعب صدر الريح الواسعة... لا تكف عن مطالعة الكتاب الذي تنتفض أوراقه ، كطائر ترتد إليه غريزة البقاء باحثا عن الخلاص.. ترتعش أهدابها المثقلة فوق الكتاب الذي غمره للتو ظل أطبق عليه.. رفعت رأسها إلى الجسد السامق وتبينت وجهه الشاحب المبتسم، تملكتها رجفة ارتياب وخوف لكونها بعيدة عن أعين رجل الشاطئ الذي يحوم بالمكان على فترات متباينة.

- هل من خدمة أيها السيد؟

- أتمانعين سيدتي في الحديث قليلا مع غريب عن البلدة؟

نظرت إليه تستوعب تلك الابتسامة التي كشفت عن أسنانه

- غريبٌ عن بلدتنا! ... تفضل إذاً، أي شئ يمكنني أن أسديه إليك؟

سحب مقعداً وضع عليه جريدة كانت في يده وجلس إلى جوارها: سيدتى، أنا عاشقٌ لهذا البحر.. ظننت أنني أمتلكه وحدي في هذا الوقت من العام.

- أأغضبك أن وجودي يفسد حق ملكيتك له؟

- بالطبع لا، سيدة ...

- لك أن تدعونى بالسيدة ميم

- أتخفين اسمك؟ أم ستجعلينه فزورة أسرد بعدها الأسماء التي تبدأ بهذا الحرف ؟

- يبدو أنك تتخيل أيها السيد أنني أرغب في اللهو معك.

- معذرة أرجوك إن أخفقت في التعبير

- .. لا بأس، لكنني لن أحتمل المزيد منه

- حسنا، لك أن تدعينني أيضا بالسيد سين

ضحكت: حسنا يا سيد سين .. قلت أنك عاشقٌ للبحر.

- نعم، كنت هنا أعواما عديدة في مثل هذا الوقت من العام.. رأيتك فيها أكثر من مرة، وفى كل مرة وددت الاقتراب منك.. أن تقذف الريح إليك همسات قلبي

- سيد ... أنت تفاجئني بزيارتك الآن، ثم مشاعرك التي تكنها لمخلوقة لم تنظر إليها قط.

- كانت بيننا تلك الشفرات التي اختزلتها الريح في أصواتها العاتية، كيف لم تسمعيها؟!

- أنت تهذي.. يبدو أنى قد أحسنت الظن بك أكثر مما ينبغي

همت بالنهوض ليوقفها قائلا: أنا أثق في حبي لك، وأنك قد تبادلينني نفس الحب.. فقط أزيحي هذا الحاجب الذي منعنا من النظر إلى بعض، لتتبيني هذا الحب الكامن في قلوبنا.

رفعت رأسها إلى السماء التي بدت كساحة عراك للسحب تنفضها الريح فوق رأسيهما، يتنفس في صدرها هذا الجليد المتحشرج، راقبت عينيه السابحتين في إنائين من الفضة اللامعة.... تذكرت فنجان قهوتها الذي رشفته ذات يوم، وطالعته غجرية الميناء، أخبرتها أنها ستجد الحب يوما على هذا الشاطئ.. راقها رفيف قلبها الذي اشتعل في شعابها البعيدة... أحكمت منديل رأسها بعد أن نفخته الريح لتطوى بعده الكتاب في يديها.. تتذكر أنها

انتظرت دوما رسائل البحر التي يقذفها الموج، وأنها تعشق هذا الكائن فوق الجزيرة البعيدة.. ترّسخ في قلبها أن ما يحول بينهما هيَ تلك الأمواج العاتية التي يعجز عن عبورها إنسان، وأن آهات الحب المجللة بقلبها ما هي إلا شفراتٍ من قلبه بثتها الريح إليها.

- من أي بلد قد أتيت؟

- أنا من بـ

- لا لا ، لا أريد أن أعرف حقا من أين أتيت

- المهم أنني هنا معك الآن

ترتبك: هذا الوجود لا يعنيني أيها الغريب

- لم نعد غرباء، فقد جمعنا القدر بهذه البقعة من البحر .. انظري إنها الجنة الموعودة فوق الأرض.

- لم تكن الأرض سوى ثمن للخطيئة، فأي جنةٍ تبحث عنها؟

- تفرين من مشاعرك، غريزتك التي تنبش قلبك.

- أرجو ألا تظنني تلك الصخرة الصلدة التي لا تشعر بصدق حديثك

- لماذا إذاً؟! ...

- .. أخبرني عن عملك؟

- أعمل أستاذاً في الميكنة الزراعية

- .. يبدو أنه عملٌ شيقٌ وجميل

- حقا، أجد متعتي به واستطعت أن أحقق فيه إنجازات كثيرة

- يبدو أنك تشعر بالفخر لذلك.

- نعم، وماذا عنك؟

- أنا.. أنا لن تجدني أشعر بالفخر أو الزهو من أجل أي شيء، فقد فشلت قديما في أداء عملي كمعلمة.

- كيف؟

- .. عندما تُغلق فمك، وتفشل أن تتواصل مع الآخرين، لحظتها تدرك أن العالم لا يشغلك، وأن كل شئ به قد هوي إلى القاع... سيد سين، أنا أبقى هنا الشتاء وحدى، وأنسحب صيفا إلى الواحة البعيدة لأجلس تحت كرمات العنب وأشجار الزيتون.

-.. هنا أو هناك، عن أي شئ تبحثين؟

- سأعيد لك سؤالك، ما الذي تبحث عنه عندما تأتى إلى هنا كل شتاء؟

- .. ربما أبحث عن شئ قد ضاع في زحمة الحياة.. السعادة.. أم أبحث عن نفسي

- وجدت أيا منها؟

- وجدتِ أنت؟

- يبدو أننا نقتفى نفس أثر الشئ .. وداعا سيد سين .

- أتظنين أنه من الصواب الوداع بيننا ؟

- سأمتلك الشجاعة لأخبرك أنني أحبك. وربما أنني أحببتك قبل الآن، ولكننا سنظل دوما غرباء المتاهة التي تحيط بنا

***

لحظات طالت بعد رحيل آخر شعاع للشمس، ليدنو منها رجل الشاطئ وفى يده كشاف بسط بقعة ضوئه حولها.

- سيدتى ، طال اليوم بقاؤك، أترغبين في أي مساعدة؟

- .. أشكرك يا صديقي، كنت أعتزم الرحيل الآن.

أشار بضوء الكشاف إلى الجريدة المبعثرة أوراقها على المقعد المجاور لها قائلا: هذه الجريدة لك؟

- لا .. قذفتها الريح من مكان بعيد

الدوامة

فوق قمة الجودي، تنبعث إشارات متكهربة الألوان لسفينة الخلق المعاد، تلتقط الحدأة جيفة تقددت في ضوء الشمس، تغرسها في صاري السفينة، يشتم المبعوثون لتلك الأرض من رائحتها القبور التي احتوتهم عقوداً طويلة، يتجدد لديهم حنين الفناء، انطباق الأرض، الصدع المهيض، هوة القذف، اختفاء النبض، التلاشي، نفق الضريح، الليل وبذور التعفن تحت الثرى

بعث بغيض، أصبح الراوي بطلا من جديد، دفعوها إلى دوامات عرض البحر المسجور، تهوى بينما الحدأة يخيب رجاؤها فى صيدٍ جديد.

انسحاب

تستقل عربة الترام، استطاعت أن تجلس إلى جوار نافذة منه، أطلقت النظر إلى الطرقات والمسافات التي كان يقطعها متهادياً، تقاوم ضعفها، سراج نحيل يظل مشتعلا إلى الأبد، بعض قطع العملات مازال صوتها فوق منضدة العمل، تلتقطها، تتجمد أطرافها فوق بعض أكياس الطعام، هزات قليلة جعلتها تلتفت إلى المحيطين بها.

ترتجف لحدوث هزة مزلزلة بأوصالها، ألقت ما في يدها وقفزت متعلقة بعنقه وهى تصرخ وتبكى، نظرت إلى وجهه، عيناه مشدوهتان، فاغرا فاه، حاول أن يُجلسها معتذرا أنه لا يعرفها، تتعلق في أمواج الخجل وهي تنسحب من بين يديه، قام البعض بجمع الطعام الملقى ووضعوه بين يديها، تنظر إلى أحذية المحيطين وأعينهم ترصدها في شفقة بالغة، يبلغ الترام النهاية، فتمضى بلا توقف.



فوق بحيرة بعيدة وقفت تنظر لانعكاسات صورتها على صفحة مياهها التي تهتز مع هبات الريح المتلاحقة.. جاهدت لمعرفة تفاصيل وجهها، وكأنها تبحث في أبجديات البشرية البعيدة التي جهلت ملامحها قبل اختراع المرآة.

تحيطها أصوات النوارس التي ملأت الفضاء وحفيف أشجار الصفصاف الملاصق لمنزلها، تعيد النظر إلى الجسر الذي يبدو شاخصاً من بعيد... تقبع قريتها دون الجسر، كقطيع خراف تحتمى بالظلال.

تعكس صفحة البحيرة صورتيهما خائنٌ وغادرة .. (نعم ثمن الخيانة الغدر)

تلتقط حصوات تقذف بها صورته فوق الماء، تلتفت مذعورة وهو يحاول جذبها إليه قائلاً: لا عليك حبيبتي، اهدئي لنتخلص من كل هذا الهراء.

دفعته بعيدا وأنفاسها تلهج كعْدّاء أنهكه السباق قائلة: واهمٌ أنت، أترى أنه يمكن النسيان والمغفرة؟!

اقترب منها، فمدت ذراعها لتمنعه عن الاقتراب منها.

- .. أتذكرين هذا اليوم الذي قرعت به باب منزلي تزفين إلىّ تلك المغفرة، وأننا قد نبدأ كزوجين محبين من جديد

- أيها الوغد، أنا لا أذكر أنى قد حدثتك بعد خيانتك لي.

نظر إليها مطولا وقبض على أصابعها ليسحبها نحوه

- بل تذكرين حبيبتي، هذا العصفور الذي حط أمام نافذتي وغرد من جديد، فمنحني الحياة والقدرة على التخلص من الدنس الـذي علق بي، لأجثو تحت قدميك ما حييت.

دفعته بكلتا يديها لترتد إلى الوراء خطوات: أيها اللعين، أتعتقد أنها كانت المرة الأولى التي عبثت بها مع الخادمات أو صديقاتي؟!.. كنت أشم رائحتك اللعينة، أتنفس نتن وجودك إلى جواري.. لهـذا تراني ملاكك الطاهر الذي لم يرد لك الخديعة ليدنس مخدعك.

- أقسم لكِ

- لا تقسم فالشيطان الـذي حـل فى جسـدك وروحـك لا أثـق بقسمه لي.

- ومع ذلك تقاسمت الطعام معي في غرفة الطعام المخملية التي أضأت شموعها.

- لم أفعل.

- بلى، فعلتِ.. كيف لا تذكرين تلك الليلة الجميلة؟!.. تلك الليلة التي أعددت بها عشاءنا.. كنت تمرحين كناي تراقص ليلا فوق التلال، داعبت أناملك خصلات شعري مرات عديدة، وبدأت أحلم بليلة عُرس في ضوء عينيك، حتى وضعت الحساء أمامي، لأغط في نوم ثقيل بعده، فتحملني يداك الصغيرتان إلى العربة المعَدّة خلف المنزل، نرحل عبر بستان الفاكهة وسط المروج إلى الجسر.. الجسر الذي تركت فوقه الحجر الثقيل لتوثقينى إليه، وتقذفينى إلى البحيرة بعدها.

- يبدو أن الشيطان لم يغادرك إلى الآن.

- واهمة أن تتخيلي أن أترك ملاكا مثلك دون أن أقتبس من نوره ما حييت.

- أيها اللعين، سأقذف بك مرة أخرى للجحيم الذي أفلت منه.

أخرجت غدارة في طيات ثيابها، وأطلقت رصاصة اخترقته، ففر، لاحقته بالرصاص وهو يهرول بين المروج ليستقر ساخرا أعلى

الجسر، تتبعته شاهرةً سلاحها.

قالت: الآن يجب أن ينتهي كل شئ كما أعددت لك من قبل.

اقتربت منه وعلى وجهها ابتسامة وداع ساخرة لتضغط على الزناد مرات، لتستبين حقيقة نفاد الرصاص من خزانتها.

تراشقا الماضي البغيض، وبدت الريح التي تنفض ثيابهما، كأنها تعاويذ ساحر يقبضهما بيديه ليعيد رباطهما من جديد.. هدأت الريح العقيم، اقترب منها يحتضن سكونها البالغ، يسقط السلاح إلى جوارها... أصاخت السمع إلى ترانيم القرية الصاعدة للجسر، تنظر إليه قائلة:.. نعم يمكننا أن نبدأ من جديد، لتقفز بعدها إلى البحيرة....

يوماً كنت هنا

أظن أنني كنت استقل هذه الباخرة يوما، أنين صاريها البغـيض ربما أثار في ذاتي هواجس بعيدة، أو ربما لم تأت بعد.. النهـر الـذي كانت تخترقه في ظلمة هذا الليل، هـيج الصـدأ الشـائع في أركانهـا، فنشرت الريح رائحة العطن فى أنوفنا.. راقصت أصدقائي على وقـع أخشابها البالية، فبدا العالم حولنا أقصوصة تروى أحاديـث للغجـر عندما قرعوا القصور ابتهاجا للكرنفـال.. الأضـواء التـي تناقلتهـا المنازل البعيدة جرفها النهر ، فبدت تعاويذ التمائم تتراقص مثلنا.. ارتعدت فرائصنا، فقبعنا نسـتند بأكتافنـا المتعامـدة عـلى جوانبهـا، نتراشق النظر إلى السماء والظلام الذي يحيط برؤوسنا.

يوما جلست معها، نقتفى شيئا بعيد الأثر، تُخفى شـحوبا فـوق قسمات الربيع التى صاحبتنى صباي.. امتلأت رئتاي بأدخنة السفن المهاجرة، فضلات الأطعمة التي قاسمت الحيوانات بأوكارهـا... الصقيع الذي يجنب العين هناء نومها.. المطاردات التي لا تنتهـي

لأمثالنا فى تلك البلاد....

عدت جريحا لألعق جرحا لا ينتهي، هكذا تلاشت لتعبـر درج الميناء متعثرة في صخوره... تجمدت أصـابعي أيامـا فـوق دبلتهـا لأعود للنهر أقذفها إليه... أعوام مضت، أقلعوهـا فـوق الشـاطئ، بينما العشرات طفت أجسادهم فوق مياهه الخالدة.. كنـت مـنهم، حملتني نفس الموجة التي رافقتني قديما.

الصراط

- منى .. منى، إستيقظى.. أشرقت الشمس

نظرتُ إلى الصوت الذى لامس أنفاسه وجهي متجاوزاً ملحفتي الثقيلة، التفتُ فى ضجر النائم إلى الجهة المعاكسة وأعدتُ إحكام غطائي

عاود الصوت طنينه غير عابئ بالحركات المستميتة لبقائي تحت الدثار.حاولتُ أن أصيح،غير أن الرائحة المجهولة و دقات الساعة المألوفة جعلاني أُزيحه عن وجهي لأجتاز اليقظة وصقيع الأبدية الذى كنت أنهل منه فى نومي

متثاقلةً قلت: أليس مؤلماً أن تخرجيني عن حلمي لتقولين لى أن الشمس قد أشرقت؟!

إنه اليوم الذى أعددنا له كل شئ، لا أظن أنكِ تنسين يوماً كهذا.

يختلط رنين الصوت فى أذنيها، تلوم أنفاسها التى رقدت فى تلك

الهوة المظلمة لتنهل راحة الجسد والعقل الذى لا يكف عن أفكاره...

(حقا إنه يوم القصاص الذى أعددنا له.. كل شئ فى حافظة العقل، كل شاردة تحمل أشواكها فوق وجهى).

نفضتُ الغطاء ، و سحبتُ أقدامي خائرة القوي إلى أرض الغرفة الباردة.. استقبلتني الريح التى تنفست ليلها عبر الشرفة.. عقدتُ شعري للخلف، وارتديتُ ملابسي. ثم استللت مسدساً من أحد الأدراج

اليوم ستثأرين لها لتنعم روحها بالسلام

.. أجل، تلك هى اللحظة التى انتظرناها طويلاً. لكِ أن تُقيمى العزاء وترفعى الصلاة لها.

شاردة البصر تُخرج حافظتها والصورة التى جمعتها بأختها الوحيدة فى منزل الشاطئ، شرعت تبكى وقد لمعت حدقتيها بين جفونها الملتهبة ببريق رمادي

(أعوامٌ يا حبيبتى أسير فوق الجحيم وأستيقظ فوق الجمر.. أقسم لك اليوم أننى سأقضى على ابتسامته التى ودعكِ بها وهو يقتلك. الوغد الذى لاحقنى وأوهم الجميع بالحادث المدبر ليأتى

بعدها طالباً الزواج، يظن أننى سأحتل مكانك.. لكِ اليوم أن تنامى قريرة العين، فقد عاد بعد أعوام أمضاها بالخارج.. تعقبناه، ولم يبق الآن إلا اللحظة الحاسمة).

خرجتُ دون أن ألتفتُ لنظراتها التى ودعتني بها...ركبتُ السيارة، وتوجهتُ لمطعم «الورقة الرابحة» بالضاحية القريبة من شركته، هناك حيث يتناول إفطاره اليومى ليمضى بعدها إلى عمله أو إلى الشركة التى سلبها إياها..

(تلك هى الفرصة التى سأنقض فيها عليه، لن ينجو، دون ذلك الموت).

وصلتُ، وما إن كدتُ أركن السيارة، حتي لمحته وهو يغادر فى سيارته وحبات المطر تلمع في شعره، وأنفاسه المتصاعدة تنفث بخاره الشاحب .انطلقت خلفه، حتى كانت المواجهة التى باغتته. صوبت الأعيرة إلى صدره ورأسه، ترنح وهو يسقط فوق عجلة القيادة، انقلبت به السيارة مرات ليحترق معها.. كل شئ تلاحق سعيره كالبرق بالأفق، تراجعتُ مذعورة وسط الحشود المتماوجة، حتى وصلتُ الحى الذى أقطنه و خفقات قلبي تصارع الكراهية والأدخنة العالقة فى عيني....

ترتمى بأحد زوايا حجرتها وهى تصرخ فى هستيرية (قتلته،

قتلته، نعم قتلته...).

يدخلون عليها، وفى صعوبة يتمكنون من انتزاعها ليضعوها فوق الفراش، أخرج أحدهم عقاراً حقنه فى وريدها، بينما ظلت عيناها الهائمتان فى هذا الفضاء تدور حولها.

تدخل أختها وزوجها الحجرة تحمل بعض الورود

قالت: كيف حالها اليوم؟.

عقد عمل

اقترب بشفتيه يُقبلها، بينما كانت في سباتها ليوم طويل، تأففت، وكظبي لا يخطئ بوصلته يغرقها في حفريات آلاته، يتصبب عرقاً لاذعا، يجففه بخرقة يحتفظ بها في طيات ثيابه، تطل لعالمها انعكاسات خافتة لمناجل براءتها، تشتم خطيئة الأرض التي تنبت الشيطان.... تراقب الصمت الذي يلهث خلف آلات مصنعه، ينتهي دوام عمله بنفير يجوب الأركان.. يرحل.

انقلاب

انطلقا في سيارته قاصدين الإسكندرية للاحتفال بأعياد الربيع، تهمس في أذنه، ترضى أن أحتفظ بقلبك، ألا تراه مجدداً؟، هو لا يلتفت إلا للطريق، تجدد نبرة همسها، كان معي بالأمس، أراد بنا العودة لسابق عهدنا... تلقى بوردتها بأرض السيارة.. وصلا إلى مكان ما في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، حيث الخريف فى انتظارهما.

الفداء

فى صباح شتوى شديد البرودة، تكاثفت السحب بأشكال عديدة بالأفق منذرة بأمطارٍ رعدية.. لا ينتزع رتابة الطقس غير صخب القطار وهو يعبر الجسر المعلق الذى يربط بين المدينتين، مخلفاً شريطاً من الأدخنة السوداء تبددها الريح فى عراكٍ هزلى.

يعبر الطريق حاملاً صندوقه الصغير.. نصف ساعة يومياً يقطعها سيراً حتى يبلغ المقهى الذى يقع فى أقصى المدينة، رحلة اعتادها، حيث أن المقهى هو ملتقى كثير من أهل الفكر والسياسية، تحوى أرجاؤه عبق تاريخ بعيد من الذكريات تعانقها أدخنة النرجيلة التى أمطرت الجالسين تحتها طيلة المساء.. نوافذ المقهى الزجاجية مغطاة بالعديد من الصور لرموز وطنية تحجب الضوء، تزين الجدران بعض الستائر الورقية المتراقصة مع اضطراب الجو فى

الخارج .. أرضية المقهى من الباركيه اللامع، وقطع السجاد المتناثرة عليه لا تخفى قرقعة الأحذية فوق أخشاب الصندل العتيق. اكتفى الساقى بإنارة القليل من الأباليك الجانبية وكأنها تُذكر بشجنٍ قديم.

ماذا أُحضر لك يا عم خالد؟

كوب الشاى الذى تعرفه، ولكن ماذا أصابك؟ تبدو مجهداً يا أحمد؟

أشعر بدوار شديد منذ الأمس.

إذن لِمَ لا تعود لبيتك وتلزم الفراش يا بنى؟

ورديتي تنتهى فى الواحدة، وزميلى لا يستطيع تسلم العمل منى قبل ذلك.

أعانك الله، زد لى الإضاءة من فضلك يا أحمد لأتمكن من قراءة الجريدة.

للأسف منذ الأمس وهناك مشكلة فى التيار الكهربائى، ولن

نتمكن من إصلاحها قبل الظهيرة.

عم خالد وهو يطوى الجريدة: لا داعى للقراءة إذاً اليوم.

يمضى أحمد إلى البار، بينما الآخر ينظر إلى صندوقه على الأرض محدثاً نفسه: ليتنى أكف عن تلك العادة

يدخل الأستاذ سعيد، صحفى فى مقتبل العمر، تستوقفه الإضاءة الخافتة لحظات، ليمضى بعدها نحو عم خالد يجلس إلى المنضدة القريبة منه.

صباح الخير يا عم خالد

صباح الخير أستاذ سعيد

سعيد: الطقس سيئ للغاية فى الخارج، ولولا ارتباطي بالتغطية الصحفية للمؤتمر الاقتصادي ما خرجت اليوم.

عم خالد: هل تظن أننا نستفيد شيئاً من وراء هذه المؤتمرات؟

سعيد: سأسالك أنا سؤالاً آخر، بوصفك شيخاً للمجاهدين فى المنطقة الشرقية كما يلقبونك.. أتعتقد أنك حصلت على مقابل

جهادك فى سبيل الوطن؟

عم خالد وهو يعاود النظر لصندوق ورنـيش الأحذيـة: تقصـد أننى لا أملك شيئاً، لأننى مازلت أُمارس مهنتى ماسحاً للأحذية.

سعيد: نعم..

اعتدت ألا أطلب مقابلاً..

وهذا مؤلم.

لا

هذا يؤلم يا عم خالد، عليك أن تعترف بذلك. أن تعطى كل شئ ولا تحصل على أى مما جناه غيرك.

عليك التوقف، فأنتم أجيال لا تؤمن إلا بالنفعية الرخيصة.

نحن حصاد أيديكم، أليس هذا ما كنت تردده على مسامعى كل يوم وأنا فى مريولي المدرسى.. كلمات مازالـت أصـداؤها تـرن فى أذني.

تباً لك وللصباح الذى جمعنى بك.

يحضر أحمد الشاى، ويتعجب للشجار الذى نشب بين الصديقين.

سعيد: انظر يا أحمد، أنا لم أطلب من عم خالد غير أن يعترف لنفسه أن كل ما يدور حولنا عبث، وأننا دُمى يحركها الأقوى.

عم خالد: تكلم عن نفسك، فما أنت سوى لعبة فى يد جريدتك التى تغير مبادئها كل يوم.

أحمد منهكاً: أرجو أن تضعا الخلاف جانباً، فكل منكما يكن احتراماً للآخر.

نظر سعيد لعم خالد فى صمت، ثم طلب من أحمد فنجان القهوة وبسكويت القرفة..

يدخل الزوجان محسن وسارة المقهى ويتجهان نحو بقعة الضوء الخافتة بالقرب من الجالسين.

تتنهد وهى تنفخ فى يديها طلباً للدفء قائلةً: كيف يسمح بعض الآباء لأبنائهم باللعب فى الطرقات فى مثل هذا الطقس؟!

ينظر إليها زوجها باستغراب: أى أطفال تقصدين؟!

الذين يلعبون بالكرة فى الخارج. يبدو أنك لم تلمحهم، فقد كنت تعبر الطريق وحدك!!

نظر إلى ساعته قائلاً: لقد أقلعت طائرته منذ ساعة.

سارة: يا لهول فراقك يا مراد يا ابنى الوحيد!! .. ثم أجهشت بالبكاء.

ألا تكفى عن هذا النحيب، منذ أن علمتِ بخبر بعثته وأنتِ تصلين الليل بالنهار فى هذا النكد!!

أخفت وجهها وهى تمسح دموعها عندما وقف أمامهما أحمد فجأة ليسألهما ماذا يقدم لهما.

محسن: أبريق شاى وكيك البرتقال.

انصرف لتقول بانكسار: تعلم أننى لا أحب الشاى.

آه.. نسيت، نسيت.

يدخل المقهى أحد رجال الدين فى زى منمق، دخل بعده الأستاذ

عارف فى جلبة الريح القوية خارج الباب الزجاجى، يُلقى التحية على أحمد وهو يسلمه قبعته وقفازه، بينما يسترعى انتباهه الهزال الواضح عليه.

عارف: أى صديقى، لِمَ لا تبدو فى صحة جيدة اليوم؟

منذ الأمس وأنا أشعر وكأنما رأسى يتهشم بقبضة غريبة.

عارف وهو يخفض صوته مبتسماً: تعرف يا أحمد أن هذا المكان قد يكون مسكوناً، فهذه المنطقة كانت للمقابر فى الحروب السابقة.

يقترب منه هامساً: حقاً، أخشى أن أخبرك بأمور غريبة تحدث لى عندما كنت أخرج ليلاً لإلقاء القمامة عند الوادى القريب.

عارف وهو يربت على كتفه ساخراً: تحلى بالشجاعة يا رجل فأنت على مقهى التحرير، وما ألمّ بك نزلة برد ستبرأ منها بالراحة وبعض الأدوية.

أحمد: أتمنى ذلك.. ماذا أُعد لك؟

عارف: أخبرنى أولاً عمن يجلس هنا ممن نعرفه؟

عم خالد والأستاذ سعيد.

عارف وهو ينصرف: كوب الينسون المغلى يا أحمد.

يتجه إليهما وهو يُلقى التحية التى بادلاها ليجلس بالقرب من عم خالد.

سعيد: ما توقعك للبورصة اليوم يا عارف بك؟

عارف: ستربح طبعاً.

عم خالد: بسبب المؤتمر الاقتصادي؟

عارف: السوق انعكاس لكل ما يدور حوله

سعيد: وبصفتك رجل أعمال.

عارف مقاطعاً: ورئيس حزب الانتماء الشعبي.

عم خالد: رئيس لكل الشعب العامل يا عم.

سعيد: أتعتقد أن المؤتمر سيعود بفائدة علينا؟

فزع الجميع لصوت ارتطام أحمد بالأرض وتهشم الأكواب

الزجاجية، أسرعوا لمكان سقوطه، لتتسمر أقدامهم على صرخةٍ أشد فزعاً انخلعت لها قلوبهم، عندما برز أمامهم مسخ يشهر سلاحاً نارياً فى وجوههم.. أخذوا يتراجعون وسط صرخاتهم المكتومة، إلى أن صاروا إلى الركن الأمامى من المقهى.

أطلق رصاصة بالقرب من الباب عندما لمح رجل الدين يزحف هارباً. نهض الرجل مفزوعاً يتوسل إليه وهو ينضم للآخرين.

المسخ، يرتدى ملابساً خفيفة قذرة، توحى بأنه لا يشعر بالبرد الذى يعترى الجميع.

المسخ: صباحكم بخير أيها السادة.

يزومون فى همهمات متقطعة مرتجفة.

المسخ: من الواضح أنكم تتساءلون عن الشئ الذى أبغيه منكم، غير أنكم ستكونون ضيوفى بعض الوقت، لنرصد الحسبة التى سنتفق عليها معاً.

عم خالد: وماذا تريد منا؟ .. من أنت؟!

المسخ: هذا هو الشئ الذى يجب أن نتعارف عليه أولاً.. أنا لست كما تظنون معتوهاً أو قاتلاً مأجوراً، فأنا مبعوث الهوة السحيقة التى تمتد لقرن من الزمان خلف هذا البار. عليكم أن تُدلوا برؤوسكم لتعرفوا كم من القتلى هناك.

علا الهلع والصخب ليأمرهم وهو يلوح بالسلاح نحوهم: عليكم بالصمت حتى لا تثيروا فزعهم، أسمعتم ما أقول؟.

سارة برعب: أأأنت؟!..

المسخ: نعم.. أنا شبح الماضى الذى لا تعرفونه، أتى فى اليوم والساعة التى فارقت فيها وزملائي عالمكم البغيض، أفواهنا وأيدينا مكممة فى صمت الأبدية هناك.

سعيد: وماذا تريد؟!

المسخ وهو يبتسم: ماذا أريد؟!.. يبدو أنك على عجلٍ وتريد الانصراف أيها السيد.. دعونا نعقد الصفقة الآن إذاً، فأنتم جميعاً يمكنكم الانصراف بشرط أن يأتى معى أحدكم إلى الهوة هناك.

محسن: نذهب معك؟!.. إلى أين؟

المسخ فى حدة: قلت أحدكم يذهب إلى الهوة هناك معى.

عارف: .. ولماذا يذهب معك أحدٌ منا؟

المسخ: ليس من شأنك، وهو قرار الإخوة هناك..

عارف: هذا مستحيل..

المسخ: لا خيار أمامكم، وإلا سأقوم أنا بهذا عنكم.

عم خالد: تريد أن نُعطيك كبش الفداء لتترك البقية منا؟!

المسخ: نعم، وأمامكم نصف ساعة من الآن لننهى هـذا الأمـر سريعاً

عم خالد: وماذا تجنون من وراء ذلك؟!

المسخ وهو ينظر لساعة الحائط: أمامكم تسعة وعشرون دقيقة.

تراجع إلى الخلف، بينما وقـف الجميـع مبهـوتين ينظـرون إلى بعضهم البعض..

عم خالد: أرى أن لا نعطيه سؤاله.

عارف: وماذا عندما يقوم هو بالاختيار إذا انقضت المدة؟ ، ألا ترى أنه جادٌ فى حديثه وبشعٌ فى منظره.

سعيد هامساً: اخفضوا أصواتكم. وعلى أحدكم القيام بهذه المهمة من أجل الجميع.

محسن: ولِمَ لا تتقدم أنت لهذه المهمة وتُريحنا؟

سعيد: أنا؟!!.. ألا تنظر لنفسك يا رجل وقد جاوزت الستين؟، أأضحى وأنا فى عمر الشباب من أجلك أنت؟!

محسن: أيها البذئ، وهل حدد المسخ شرطاً للمضحى به؟!..

سارة: إذا كان هناك خيار، فلم لا يكون رجل الدين الذى يبدو متجلداً ولم نسمع صوته منذ أن وقف بيننا؟

رجل الدين هلِعاً: لَمَ تزجين بى يا امرأة بينكم؟!

سارة: ألست معنا فى هذا الاختيار؟

رجل الدين: أنا داعية وأحمل رسالة هداية للجميع.

سارة: أوليست التضحية من أجل الآخرين هى أسمى رسالة؟

رجل الدين: ناقصات عقل لا تعى ما تقول. بل لِمَ لا تكونين أنتِ الفداء وأنتِ المرأة الوحيدة بيننا؟

سارة: يالك من رجل وضيع، أترضى أن تفتديك امرأة؟

عارف: عفواً سيدتى، لقد حرصتن على المساواة والحصول على كل الحقوق، فلمَ لا تكونين أنتِ الفداء؟

سارة فى ضجر وهى تنظر لزوجها الذى لم ينبس بكلمة:.. لقد اجتمع الرهط على أن أكون الفداء!! .. لِمَ لا تتكلم؟!، قل لهم أننى كنت الفداء عندما وافقت بك زوجاً متبلداً لم يُقم للعشرة أى اعتبار. وأنه لم تُرد لى حياتى إلا بأنفاس ابنى مراد، نعم هو الذى أعاننى لتحمل هذا الفداء.. أتعلمون أننى خططت لألحق به بعد سفره فى بعثته للخارج، لتنتهى بذلك كل التضحيات من حياتى.. أتطالبوننى الآن أن أكون أنا الفداء؟!

محسن: أيتها الكاذبة اللعينة.

عم خالد: اخرس، وإياك أن تجرحها بكلمة واحدة.

محسن: إذن فلتكن أنت أيها البائس هذا الفداء.

عارف: صحيح .. لِمَ لا تكون أنت يا عم خالد وقد كنت رمزاً للتضحية طول عمرك لهذا الوطن؟

عم خالد: أنا!! أيها العابث بأقوات الفقراء.

عارف فى حدة: أنا الذى ناصرت الفقراء طوال عمرى بمجلس الأمة تنعتنى بهذا أيها الأخرق.

عم خالد: الأخرق هذا رأى الموت بعينيه مئات المرات وأنت رضيع فى حجر أمك.

سعيد: ألم تخبرنى منذ قليل يا عم خالد أنك مازلت تؤمن بالتضحية؟.

عم خالد:.. التضحية التى لا مقابل لها؟!، أمازلتم تتغنون بها؟!. أنا العبد الفقير الذى صدقتها يوماً، فأصبحت غذائى الذى أرفع الرأس به عن أحذيتكم القذرة التى أطلقتموها فى وجهى.. أرى أنكم

تجيدون نفس اللعبة. أن أكون دوماً أنا هذا الفداء!!، هيهـات.. أيُّ أناس أنتم لأكمل التضحية التى عفرتموها بأنانيتكم!!.. عن أى فداء تتكلمون؟!

سادت فترة صمت وذهول قبل أن يتراجع عارف إلى الخلف من سعيد وهو يشير بيده إلى الشحاذ الذى ظهر فى مقدمة المقهى يدعوه للدخول.

سعيد هامساً له: ماذا تفعل؟

عارف: أظن أن القدر سيكون رحيماً إذا ساق هذا الشحاذ إلينا، لن نتردد فى اختياره.. هيا، هيا.. ادخل بحق السماء.

دخل الشحاذ فى طمأنينة مستنداً إلى ساقه الخشـبية، واتجـه إلى عارف وإذا به يصرخ فزعاً عندما فوجئ بالمسخ وهو يأمره أن يتكوم معهم فى نفس الزاوية.

الشحاذ ملتفتاً إليهم: ماذا يحدث؟ وماذا يريده الرجل منكم؟

محسن: اصمت.

عم خالد: تتسكع بالطرقات كل يوم، فما الذى أدخلك الآن أيها الأحمق؟!

سارة: يمتلك نفس الحظ العاثر مثلنا.

سعيد: أو أرسله القدر ليكون خيارنا للنجاة.

الشحاذ: عم تتحدثون؟..

عم خالد: أن تكون فداءنا، تكون الشخص الذى سيقضى عليه هذا المسخ لننجو جميعاً من قبضته.

الشحاذ فى ذهول وهو يقترب من عارف: ألهذا أشرت إلىّ وأغريتنى بالدخول؟!

عم خالد باستياء لعارف: يالخستك!

عارف: أترى أنها خسة؟، وما اسم ما نحن عليه الآن؟، ماذا تقولون عنه؟

الشحاذ بمرارة: لأننى لا أملك شيئاً تضحون بى؟

سعيد: انظر لحالك البائس، وكم تعانى وأنت تمضى على ساقٍ

واحدة.

الشحاذ: يـا لرحمتـك!!.. سـأخبرك أنـا بـأمرٍ آخـر، سـأركض وأسبقكم جميعاً بساقى الوحيدة التى تستهينون بها، فشكرا لعطفكم.

عندها تقدم المسخ وأخبرهم بنفاد المهلة المحـددة وأنـه هـو الذى سيختار ضحيته للفداء، فإذا بكرةٍ طائشة تنطلق من الشـارع، تطايرت معها واجهة المقهى الزجاجية إلى الأرض ليـرتج المكـان وتموج المصابيح والستائر فى فوضى العاصفة الجوية..

انبطح الجميـع أرضـاً يحتمـون بهـا وهـم يلحظـون ومضـات الكهرباء الخاطفة المتقطعة ، ليضاء بعدها المكان فجأة..

رفعـوا رؤوسـهم يترقبـون الحـدث الجلـل، مـرت لحظـة.. لحظات.. لا شئ، لا شئ غير الريح التـى كانـت تـزأر فى قسـمات وجوههم الذابلة.

لحظة فارقة

أدناها منه، جعلها قريرة في قلبه، ظلال من الأحلام تنسج في أعينهما، الحب اجتاح كيانهما، تتمسك بكل خيط يرسله إليها، تعبث لاهية في كل الخيوط، عبثية المكان شئ لا يطاق، ترتد إليها الحيرة لتنطلق لاهثة إليه، تحتضن كفيه، أدنت شفتيها تريد تقبيلهما، مسح على رأسها وهو يهم باحتضانها، تجمدت على يديه قائلة: اشتقت إليك يا أبى.

انتقام



(حقا أوشكت الشمس أن تشرق)

في مهدها الأسطوري تبحث عن ضوء خافت قد يسلك خطأ " غرفتها مغلقة النوافذ، تستمع إلى قرع طبول بعيـدة، يفزعهـا البقـاء المستسلم للفراغ المحيط بها، تجاهد وهن قواها لتَغرق أنفاسها في محيط سائل لزج، تنتظر أن يُقرع الباب، أو تتمكن عظامها الباردة أن تُصدر أي صوت لمن يفاجئها الزيارة، تقبض الخيط الذي أتيح لها الإمساك به، تراه في نوبة اختناق عارمة بفراشها مع خليلته، تطـوى الأرض في سورة بكاء غير معهـود، تختـزل المـوروث منـه لحافـة الهاوية، أدركت لعنة الحقـد بصـيرتها لتُشـبع لـذة الانتقـام للرمـز البغيض، تطفو روحها في سلة فوق صفحة النهـر، حيـث تتقاذفهـا الأمواج ولا تخالطها العيون.. ينتظم وقع خطـوات تقتـرب منهـا، تستمع إليهم يدعون أن تنعم روحها بالسلام.

الطاعون

عندما يحين العيد، ويصبح الكون سعيداً، ألهو في ثوبى الهزيل مثلى، وأبحث وقطيع أطفال عن نفحات قد يتصدق بها الزائرون للقبور .... الصناديق الخشبية التى نرتمى بها، فلا تقي أجسادنا حر الصيف وبرد الشتاء .. ظننت دوماً أنني جزء من هذا الصندوق، ثقب فى جنباته تأتى منه الريح وقطرات المطر، أحببت خطوط الضوء التى تنسل من خلاله، فأستيقظ لأختفى بين شواهد القبور وأكداس القمامة .

***

تقرع الباب للمرة الخامسة اليوم، وفى كل يوم تنتظر إشارة منه أو حلقة صخب بالأشياء التى يقذفها داخل حجرته ... عصراً قررت أن تنتهك الحصن وتدفع الباب الذى اختفى خلفه أكثر من ثلاثة أشهر .

هو ملقى على فراش متسخ، مبعثرة حوله الكثير من الأوراق

وزجاجات البيرة، ترتكز عيناه على حلقة الضوء الصفراء التى ترتسم على سقف الغرفة . الجدران مليئة بالصور التى أفرغها من ألبوماتها وألصقها حوله فى كل مكان، تكتم أنفاسها من الرائحة النتنة التى تملأ المكان ...

تقف لحظات على مقربة من رأسه صامتة، اتجهت بعدها نحو النافذة، أوقفها صوته المكتوم : إياك أن تفتحيها .

تراجعت :.. وماذا بعد؟، ماذا بعد أن يظل الباب والنافذة مغلقين شهوراً أخرى؟.. أليس لهذا الجحيم من نهاية؟، هيا اعتدل وانظر إلىّ وأنا أتحدث إليك .

التفت بجسده نحو الحائط : لاحاجة لى بالحديث معك .

أسرعت إلى النافذة وفتحتها فدلفت نسمات الخريف وضوءه الفضى إلى الحجرة المعتمة، انتفض من مكانه وأمسك بأحد أعمدة الفراش صارخاً كطفل أفزعه شىء خفى : أبعدى هذا الضوء، لا أريد أن أراه، لا أريد أن أراه .

جلست على مقربة منه تحتضن كفيه المرتعشتين فى أصفاد عرقه البارد

بهاء .. لم ينل أيامنا وقته الكافى فى مصارحة الآخر فيما وصلنا إليه

.. ماذا ألم بك؟هل كنت أنا سبباً أخر أوقعك فى هذا؟

يخلص يديه منها باكياً : اخرجى واتركينى وحدى أرجوكِ، اخرجى، فأنا لا أريد أن أرى أيا منكم .

عمن تتحدث هكذا؟! ، عنى وأولادك، إذا كنت قد كرهت الحياة معنا فاجمع ثيابك وارحل فقد مللت هذا الدور الذى أقوم به .. انظر إلىّ جيدا، فنحن نتحرك فى جنبات هذا القصر وليس على جدران هذه الحجرة التى ألصقت صورنا إليها .

صارخا : هذا ليس من شأنك .

ليس من شأنى !! لأنهم أحالوك إلى التقاعد، أم لأنك تشعر بالذنب لأنك أنكرت وجود أبيك طوال هذه السنوات .

اعتدل فى جلسته وبنظرة عداء : عن أى هراء تتحدثين؟

عن أبيك الذى أخفيت وجوده وادعيت موته .

ومن قال لك غير هذا؟

هو الذى اتصل بك منذ شهر، وداوم على الاتصال للإطمئنان عليك . وقد دعوته اليوم للعشاء .

انتفض واقفا : دعوت من؟!

قلت أبوك، لم لاتنهى الخلاف الذى نشب بينكما قديما فأنت في حاجة إليه، وهو أيضاً يبدو كذلك .

كيف تقومين بهذا دون الرجوع إليّ؟

وأين كنت لأرجع إليك !، ثم كيف تلومنى على شىء أخفيته عنى وكان عليك أن تخبرنى وتخبر عائلتى به من قبل؟

أخبرك ! اخرجى ودعينى، اخرجى .

حسناً، سأحتمل المزيد من فظاظتك، ولتعلم أنه سيأتي فى الثامنة، فاستعد وخذ حمامك واستبدل أوهامك التى رافقتك، فقد صرت حقاً لا تطاق .

تمضى إلى الخارج، بينما يخر مبهوتا على الفراش .

... كيف هذا؟! من هذا الرجل الذى يعاود الاتصال بى ويدعى أنه أبى ؟ .. أتراه يعرف الحقيقة؟ ..الحقيقة ! .. هراء، أبعد أن أخفيتها العمر كله أتأتى الآن لتُفتضح .. أنا والحقيقة وجهان للقدر المجهول، ركضت كالقطط دوما فى الطرقات ،حتى تصيدتنى أياديهم إلى هذا الملجأ اللعين، الذي لم يختلف كثيرا عن بيوتنا الصناديق التى احتميت بها وأمثالى بين القبور، غير أن الوجوه التى كانت تتقزز منا وتركلنا قد صارت معهودة لدينا .. كم تمنيت

الإفلات من نوافذه كهذا الجرذ الذى فاجأنى فراره من بين قضبانه يوما، استوعبت دروسى وأيقنت أن الخلاص فى الطاعة، حصلت علي الثانوية وقررت الفرار إلى العالم شديد الإتساع والوحشة، تعثرت فى كل شىء صادفته، واهتديت إلى أن القوة لا تأتى إلا من السلطة، وأنها تكمن فى سلاح واحد ذي حدين، الجيش، والشرطة . ولكن كيف الوصول إليهما وأنا هنا عديم الأثر؟، كان يجب أن أستمد لاسمى هذا الكيان للإمتداد..استعنت به. متولى دراهم، أخطر مزيف بالقطر، دفعت له ثمنا لشهادة ميلادى وشهادات دراستى . كان مطلعاً وخطيراً فى ذكائه لإختيار اسم لعائلة مهاجرة، وهكذا أصبح القدر حليفى للمرة الأولى، عندما قُبلت فى كلية الشرطة.. أدركت ساعتها أن الطريق قد صار مفتوحا ، فجنيت الكثير الذي شددت به عودى السقيم . والآن انتهى كل شىء وأحالوني إلي التقاعد بعد كل ما أثبته من ولاء .. كنت سوطاً من أسواطهم الذي ألهبت به العصاه، والكهرباء التي نهشت أجسادهم المنتفضة . كل شيء أتممناه فى سرية حتى النهاية التى لا تشيعها النائحة .تاريخ طويل لم يشفع لى عندما أطلقت الرصاص على رجل رفض إهانتى له بالطريق، لأُجبر بعدها على تقديم الإستقالة .. كل شىء ينهار، والصمت يطبق فوق الكون، فلم النهاية بغيضة كدخولى هذا العالم..؟

نهض متخبطاً واحتسى فى جرعة واحدة زجاجة من البيرة، مضى بعدها إلى الحمام يصب الماء البارد فوق رأسه .. ارتدى ثياب عمله كاملة وخرج إلى الصالون فى انتظاره، وبينما كانت تعد طاولة العشاء لم تبد إستغراباً لزيه الذى خرج عليها به الآن، لحظات طويلة الإنتظار إلى أن دقت الساعة ومعها جرس الباب، ذهبت وفتحته وأشارت إلى الصالون الذى يجلس فيه بانتظاره، نهض إليه يتدارك قسمات وجهه البالية التى تختفى تحت شعره ناصع البياض .

فاتحا ذراعيه له : كيف حالك يا بنى؟

هرع إلى الباب يغلقه ليجذبه بعدها إلى الداخل وهو يدفعه .

من أنت أيها الرجل؟، فأنت تعلم أننى لست ابنك .

يبتسم بسخرية : يمكننى أن أستخرج لك شهادة تقول بأنني أبوك وأنك أول أبنائى الذكور .

تراجع فى ذهول : متولى .

يفتح ذراعيه : ها وقد عرفتنى فارتمى فى أحضان أبيك أيها العاق .

أشاح بذراعيه بعيدا : ما الذى أتى بك إلى هنا؟

أهذا هو اللقاء بعد كل هذه السنين ؟ ، وهذا المعروف الذى

قدمته لك يوما .

احذر لكلماتك، فأى معروف أنا مدين لك به أيها الحثالة، ألا تعرف مع من تتحدث؟

.. نعم أعرف، فقد رأيتك وأنت تتدرج فى رتبك . وقتها لم يكن باستطاعتى الاقتراب منك، لأنى سأكون بهذا هالك لا محالة، أما الآن وقد أحالوك إلى التقاعد ...

أمسك بتلابيبه ودفعه إلى أن كومه فوق الأريكة

ماذا تريد؟؟، أتعتقد أننى فى موقف ضعيف لأننى خارج السلطة؟

يحاول الإفلات من قبضته دون جدوى فأتت كلماته مكتومة الأنفاس

تذكر، أن كل شىء قد ينهار، أكثر مما تظن .

ماذا تريد؟

نصيباعادلاً، من الذى تعيش فيه، فرغم مهارتى، فقد عشت مرتزقا، أما أنت، فانظر إلى ما أنت فيه الآن .

أفلته : أجئت لمساومتى؟

..لم لا تقول بأنه أداء لدين قديم .

وبكم أنا أدين لك؟!

يعيد ترتيب هندامه : لنقل أن خمسة ملايين تكون حسبة عادلة .

..أليس هناك فرصة لأن تقوم بتخفيض هذا المبلغ لمحسوبك يا سيد متولى؟!

..لاحظت الأسباخ والجرذان تملأ حديقتك أثناء مرورى، ألا تعرف أنه عندما تكثر الجرذان، عليك أن تنتظر الطاعون .

ماذا تقصد؟!

هذا المبلغ الذى تستعظمه قد يأتى بالوبال على كل شىء تأمنه.

أنقض عليه مرة أخرى : تهددنى، يبدو أنك لست على معرفة بى.

بل أعرفك جيدا، كنت جرذاً صغيراً كجرذان حديقتك تبحث عن لقمة فى الأركان، أما الآن فقد صرت جرذاً كبيراً يمكنه أن يقلب كل الأوانى والقدور

سأطيح برأسك هذا وأقسم على ذلك، فهم لم يحيلونى إلى التقاعد إلا لإضفاء صفة النقاء لكيانهم أمام الجميع، فنحن لانخضع للمحاكمات .. لا محاكمات لنا .

دفعه بكل قوة حتى تخلص منه، وباستهزاء قال : يبدو أننى قـد أخذت الكثير من وقتك الثمين، ويجب ألا أطمع في أكثر من هذا .

رمقه بنظره يتوعده بها: ...انتظر لأمهد لك الطريق، وتذكر أنى لا أريد أن أراك مرة أخرى فى حياتى .

مضى خطوات نحو الباب، وفى سرعة استل مسدسه مستديراً ليصوب رصاصة فى رأسه .

لحظات قضاها فى النظر إلى الشيخ والدماء التى بدأت تنساب فى كل مكان، خرج بعدها ليجدها متسمرة على بعد خطوات من الحجرة

لم كل هذه الضجة؟

لا شىء .

حسناً، إنه لاشىء، سأصعد للطابق العلوى فأنا بحاجة للراحة.

أخذت فى صعود درجات السلم، لتلتفت إليه قائلة : تذكر أنك ستصحبنا إلى الشاطىء غداً أنا والأولاد .

لا، لا .

قلت هذا مراراً وقلت لك أنك ستصحبنا غداً .

هرع إلى السلم بإنهيار صارخاً .

مها، لن يحدث هذا، لن يحدث، كيـف تتـوقعين أن أصـحبك والأولاد؟ ألاتذكرين؟، ستموتون، ستنقلب السيارة بنـا وسـأراكم جميعا تحترقون، نعم، سأنجو وحدى، سـأكون أنـا الفـار مـن هـذا الجحيم وحدى، لم لا تسمعين صوتى؟.

قالت وهى تختفى فى العتمة أعلى الدرج : ستصحبنا غداً .

يسـقط ملتاعـاً. يلتفـت إلى كـل الفوضـى وعبـث الجـرذان فى الصحون العفنة .

الأرجوحة

أمطرت أوراقا كثيفة من الزهـور الصـفراء، اكتسـت الطرقـات ببساط ثقيل، اختفت أقدامهما فى هذه المروج، تشبثت يداه بـأعواد المـداخن في المنتهـى، أرخـى الأرجوحـة، لتسـتقر بأحلامهـا في خلجات اهتزازاتهـا، ألصـقت جنـاحي ذراعيهـا وغابـت في ضـوء الغسق.

وجهان

أطلت من فوق أسوار الحديقتين تُقلم أشجار الورد، ظلت وقتاً طويلاً فوق الحاجز الذى يفصل بين الجدارين، أحرقتها نار الشمس، تلتقط أنفاسها المبللة حتى العظام... تنحنى جدتها على موقد يتصاعد منه رائحة القهوة.. البيوت مغلقة دون أثر للحياة بداخلها، عدا صوت طاحونة غلال يتناقل عبر الممر الطويل الذى يخترق المنازل.. صياح الديكة عبر حظيرة الدجاج المسيجة.. (تعرف أنها تشبه جدتها، يُلقى الشبه بينهما استغراباً كبيراً فى نفوس المحيطين بهما)

وقْع أقدام لشرطيين تُلاحق شيئاً ما، تهبط بحذر، تدخل إلى البيت، تراها تُمرر طبقاً من الطعام عبر النافذة، تتصاعد طرقات خشنة على الباب الخارجى، كان أحد الشرطيين يُطالبها بفتح الباب، تفتحه فى تحفظ، يسألها: لمحتك سيدتى فوق السور، ألم تلحظى وجهاً غريباً يهرول عبر هذا الطريق؟

قالت: ... لا

قال: أحد الأحداث قد فر من ملجأ القرية منذ قليل

تمهلت قليلاً ثم قالت: أظن أنه يختبئ إلى الخلف من المنزل.

البئر

تقطّر الضوء فى الأفق.. حلقات سوداء تقتحم الشمس.. النهار يرحل.. الأصوات تهدر.. السيارات تتدافع فى مجون.. ألقيت بحجرٍ فى بئر عميق.. لم يصل الصوت .. الأصوات تهدر.. ألقيت بآخر.. الليل أسدل ثوبه الداكن.. المصابيح الصفراء فوق الرؤوس.. تشتعل بعض الأوراق، وفى الهواء تتطاير مع الريح.. أغصان الأشجار أشباحٌ تتمايل.. صبىٌ ينفلت من يد أبيه.. تدافعنا.. ركضت خلفه.. اختفى.. (أنا لا أريد العودة.. لا أمتثل لنداء البيت والسكن.. أعرف أننى من أجل شئ هنا.. سأظل أبحث عنه).. الهاتف الخلوى جثة قتلها الطغيان.. الأرض؟.. التاريخ؟.. زمن الجريمة؟ (كل يوم تنفسنا به الصمت).. الوقت لا يمر، غير أنه لا يعود .. أسلاك القطار، شرارات الدم فى كل مكان.. الموت صديق.. ترقب .. تصارعنا.. أسلحة بيضاء.. طلقات رصاص.. حمم البركان.. دماءٌ تغلى.. لا حصن ولا أمان.. الوقت يمر غير أنه لا

يعود.. ندور فى حلقات، ما أن نخرج منها حتى نعود إليها.. ألقيت بحجرٍ ثالث.. أمسكت بقناصٍ ملعون.. صوبت سلاحه إلى رأسه.. بكى وتجمد مذعوراً، شيطانٌ أخرس.. أحكمنا قيده للمنفى.. عجوزٌ يلهث.. يتوارى.. يلوح لأمجاد بلاده.. يصيح، أمجادى!!.. يتلعثم.. أنا التاريخ؟.. أنا الحاضر.. أقنعةٌ تهوى.. يستأسد.. يتربص.. إرث ابنائى.. يردد فى نفسه.. أموالى.. أنا الفرعون.. قارون حلمٌ بين أجنابى

الليل يرحل.. تشابكت أيادينا.. أتى الصبح بطلاً يطل فى ضمائرنا.. بسمة تحتضر وأخرى تعود.. اقتربت، فلم أجد للبئر عمقا أو وجودا(غداً سأعود.. نعم.. سأعود)

القبضة

تحلق الأطباء الخمسة حول المنضدة بإحدى مستشفيات الصحة النفسية بالعاصمة، تداولوا أوراق التقارير النهائية للمريضة هدى، يتنفس الصعداء وهو يعلن لشركائه أنه على وشك تحقيق حلمه لهذا العقار الذي عكف عليه سنواته السبع الماضية ...عاد في جلسته إلى ظهر مقعده بعد أن ترك الأوراق من يده .

دكتور خالد :أظن أن التقارير التي وافيتمونى بها على مدار الأشهر الماضية كافية لأن نبدأ التجربة .

دكتور مراد :كفاءة العقار التي تأخذ جرعاته لا أرى أنه يبد استجابة معها بدرجة كافية

دكتور خالد :لا يبدى استجابة!!، عزيزى، أنت تتحدث عن حالة الموت والحياة كانا لها سواء

د / مراد :وما الفرق فيما كانت وما هى عليه الآن؟ !

د / خالد :تشكك فى البيانات التى حصلنا عليها، تكلم يا دكتور نادر وأخبره عما كانت هدى و ما هى عليه الآن .

د / مراد :أعلم أننا كنا أمام حالة غارقة فى الذهول الكامل، لا تبدى أى استجابات بصرية وسمعية أو حسية منذ أن سلمتها لنا القوات من الشريط الحدودى .

د / خالد :نعم، ونعلم التفاصيل التى قد تكون تعرضت لها على أيدي القوات الإرهابية هناك ...لقد بدأنا جهدا مضنيا أنت تعلمه منذ أن تحققنا من الصورة المشوهة بردائها والتى يبدو بها خمسة أشخاص، ربما كانت هى منهم، أكانوا لها أبناء، إخوة؟، هل منهم الزوج ،أم الأب أم الأم..؟ أعطيناها العقار الذى سأثبت لكم بالتجربة أنه قد ضاعف من قدرات الوعى لديها لترتد إلى الواقع شيئا فشيئا ..أعرف أننا نخترق فراغا لا ندركه، غير أننا غامرنا جميعا حول كيانها البائس الغامض ..جئنا لها بأصوات العصافير وماء النبع، أصوات أشخاص وأطفال دائمى النداء باسمها وبكلمة ماما، أجلسناها فى ضوء القمر وتحت كرمات العنب ..بعد كل هذه الشهور من المعاناة والعمل ، بدأت بأول الاستجابات للنداء باسمها .

د / ماهر :حقا، تشعر في حركات عينيها الزائغة مؤخرا بزحف

جليدى يسلب أوصالها، لتسقط بعدها فى تشنجات توحى بأن هناك شئ ما يتردد فى عالمها البعيد .

د / مراد :هذا ليس معياراً للنجاح .

د :خالد :لقد عادت إلى الحياة وسقط الحجر فى البئر الراكد وآلت الخيوط الآن لقبضتنا .

د / مراد :قد لا تحتمل وهى غير كاملة البناء لتلك الصدمة .

د :خالد / عليها أن تخرج عن هذا الصمت ..أن تأتى بأى كلمات حتى ولو كانت غير مفهومة .

د / مراد :ألتثبت للعالم وهم عقارك الجديد؟، أم لتجمع التبرعات للاجئين بمشفاك الخيرى؟

د / خالد :عقارى ليس وهما، وإنها لفرصتى التى سأحظى بها لأعيدها للحياة من جديد .

د / مراد :أتعتقد أن من ترك الحياة يمكنه العودة من جديد؟

د / خالد :هذا الخيار قد أصبح لى

د / مراد:..إذاً لا مفر من التجربة .

د / خالد: ..دكتور جميل، كنت المسئول عن الإشارات التى

أرسلناها للذاكرة لها عبر الجهاز خلال ساعات نومها .

د / جميل :نعم، ومن الواضح مؤخرا أن الجهاز بدأ يسجل انفعالات متزايدة، مما يشير إلى أنها بدأت ترى خلال نومها الحلم .

د / نادر :هذا الأسبوع قد كثفنا به جرعات عقار التافلى **DN2** والجهاز سيعمل على إرسال الموجات فوق المتوسطة لتسجيل الإشارات التى ستنفعل بها مع كل المؤثرات البصرية والسمعية .

د / خالد وهو ينظر للساعة فى يده :أظن أن الوقت قد حان لتسجيل التجربة ..أمامكم نصف ساعة من الآن لتكون المريضة بالحجرة المعدة ..اعلموا أنكم شركاء عمل عظيم يسعى العالم عقودا للوصول إليه ..نحن فقط من سيسجل التاريخ له هذا السبق..

جاءوا بها وأجلسوها إلى المقعد المعد بكل أسلاك الاتصال .. سلطوا ألوانا متتابعة على عينيها المتحركة فى كل اتجاه، وجلسوا حولها للمتابعة ..بدأ إرسال الأصوات يتوالى إلى أذنيها والأضواء الخاطفة .

هدى ...ماما ....أبى ....هدى ..أحضرى الشاى ....هدى .... سأذهب إلى المدرسة يا أمى ...العيد جاء أبى ....أمى ...الأمطار تغمر الطريق ...صوت قطار ...نفير السفن الراحلة ...هدى ..أمى

...بكاء طفل ...لا ....حفلة عيد ميلادى ..ضحكات صبية تمـلأ الدار ...أمى ...هدى...اجمعى الثياب قبل العاصفة ...أين حذائى؟ ...الشـــمس....هـــذا المســـاء...أريـــد طعـــامى ... لنتسابق....هدى....أصوات السنونو .

سجل الجهاز إشارات ترددية خافتة، تراجعت، لتعود من جديد

تقف في بؤرة الكرة الزجاجية، تلمح ألـوان الطيـف المبهـرة في العالم المسحور(...مـن ينـاديني؟....أيـن أنـا؟...)تـرى أشـجار الزيتون ...ندف الثلج العالقة بأوراق الغار ...نار المدفأة وقصـص الأبطال ...(أين قطتى يا حسام؟......عـاد أبـى مـن غابـة الفرلـق بأخشاب السرو وعين الجمل ..أمى ...كل عام وأنت بخيـر، هـذا الشال صنعته من أجلك، تُقبل يديها، بينما يتدافعوا لتقديم هداياهم لها، تتيه فرحا فى ثوبها ..لم يلتفون حولى؟ ...أكنت عروسا؟.…تلك الشموع ...مجد....مجد)....

د / نادر :دكتور خالد، الإشارة عالية هذه المرة عن سابقتها .

د / خالد :نعم وتتنامى فى ازدياد، وهذا يؤكد أننا فى الطريق،جميل عليك الآن بأصوات القذائف وطلقات الرصاص

د / مراد :لم؟، لا تفعل .

د / خالد :أرجوك ، نحن لسنا فى نزهة هنا فالزم الصمت

أغمضت عينيها على دار واسعة ...تبحث فى جنباتها عن مهد الصغير...يرصد الصقيع أوصالها المرتعشة ...ضحكات وبكاء يلاحقنها...أثرضئيل للضوء الغائم فى الأتربة السابحة ....تهوي ... يعلو الصوت، ويبقى حبل الخلاص عالقا بالأرض ...تتمكن أن ترفع الجسد المثقل ...تركض،فتكتشف أنها تحمله بين ذراعيها وسط أتون الحرب في الوديان ..أهوال تقتلع الليل ...تتعثر في طرق ما عادات تحمل نفس العنوان ...أشلاء ودمار(...لا ...أبى، أمى، لا لا لا. .)تصرخ ...جرذان ونعيق البوم ...تسقط ...

انتفض جسدها المتشنج في نوبات صرع محموم،محاولة الإفلات من مقعد البعث الذي أحكموا وثاقها إليه .

د / خالد :جميل، خفف الموجات على الجزء السفلى من الرأس، وأضف يا نادر المتبقي من العقار للكانون .

تتراخى أعصابها المشدوهة ..تتفصد عرقا باردا

يحملها مجد وحسام لبيت أحد أقاربها بأطراف الغابة ..تحتوى صغيرها، بينما تقتفى آثارهما التى اختفت بين أشجار الحور لينضما للمقاومة هناك ..أيام وأسابيع تنتهي في وحل المطر ..سنا البرق هذه

الليلـة أفزعهـا ...تهـرع لصـغيرها ترضـعه حنانـا يـدفئ جسـده المرتعش ..تتجمد من هول قرعات البنادق فوق الباب ...إقتحموا البيت و ألصقوهم إلى الجدار ...جاسوا بالأوحال فى كل الأركان ... فتشوا الأوراق ..رائحة بنادقهم المسلطة إلى رؤوسهم ...تبتهل ... ضحكاتهم الساخرة تدوى في هوة الفضاء ...ساقوها كأمة تسقط فى زمن الأوثان ..أوغاد ...تصرخ (...وا معتصماه، وا معتصماه)، .... ترقد في دنس الوحل الأبدى ..تحمل صغيرها وتقرر الفرار ...لأى البلاد ترحل؟ ...أيهم تختار...؟ ...قذائف تهوي ....ترتعد الدماء بثوبها، لتكتشف أنه كان الفـداء ...تـركض بـلا توقـف بالأدغـال ...تسقط...

د / نادر :يا إلهي، ليس بها أي نبض

د / خالد :ماذا؟ أعط صدمات القلب سريعا

انتفض جسدها مع كل صدمة، ليعطى الجهاز صفيره النهائي

د / جميل :..لقد ماتت .

د / خالد :مستحيل، مستحيل ..هذا غير معقول

د / مراد :لماذا ترى أنه مستحيل؟ !

د / خالد :لأن العقار والجهاز لا يوجد بهما أى ضرر قد يؤدى

للوفاة .

د / مراد: ..إذا، فقد رحلت حيث كان ينبغى لها الرحيل هناك .

د / خالد :ماذا تقول؟

د / مراد :أقول، أن عقارك قد نجح فيما فشل بـه القناصـة عـلى الحدود .

د / خالد :لم لا تقول أنها لو أفشت عما يدور فى رأسها لكـان فى استطاعتنا الوقوف إلى جوارها .

د / مراد: ..أتظن أننا هنا للوقوف إلى جوارها.....؟



صوت

أدرك أن الوقت لن يمر وهو يمضى متخبطاً بين جدران حجرته، يسمع أنين تلك الآلة التى لا تكف عن الهذيان والنحيب.

ليلة كاملة، أعقبها الكثير لا يمكث فيها راقداً، بل متعقباً لهـذا الصوت.. جاهد أن يلتقط أى دلالات لكلامه أو شكواه (أكون أنـا وحدى من يسمعه؟!) ... يتجلى الصوت ممزقاً ستائر الليل الخاملة، لينتهى لصباحٍ تعربد فيه الضجة.. يُجن، فلا يجد هذا السؤال يتردد فيمن حوله.. يُحكم أزرار قميصه فى المرآة (الشئ لا يعنينا، تلك هى الإجابات التى يسـوقها الجميـع).. امتطـى الجـدار الفاصـل بـين المنزلين، تشبث بكل زاوية تفصلهما. كاد يسقط لو لا إمساكه ببعض أحبال الأمل المترهلة، واصل الصعود لينتهى إلى هذه النافذة، دفعها بكلتا يديه ليرتمي على أرضيتها، أشلاءً مبعثرة فى أركانهـا الأربعـة، كانت .. حجرته.

الغريب

تنسج الشمس شعاعها المخملى الأخير فوق الصحارى الواسعة، أودية جافة تسكنها الأشباح، بنايات تحت الإنشاء تتناثر فى فوضى الصمت وعصف الرمال، غاصت أقدامه المثقلة كثيرا فوق الكثبان، ألصق حقيبة عمله إلى ظهره، بينما حرر بيديه أسلحة دفاعاته، يمسك بتلابيب ثوبه المهترئ من الريح، ويحمى بالأخرى عينيه من قذف الرمال، أكثر من ساعتين قبل هذا الشعاع الأخير الذي يرمق الطريق قضاها فى المسير، حاول إيقاف عربة..... عربتين.... ثلاث مروا إلى جواره، لم يعيروه اهتماما، بينما خلّفت عجلاتها المزيد من الرمال إلى وجهه القابض للحياة.. ألقى الظلام فوق رأسه أعوام التشرد بالبلاد، يوما هنا، وغدا هناك، يخشى النفوق بين الضوارى، فألصق إلى جلده بطاقة الهوية.. يئن من ثقل عتلاته فوق ظهره، بقايا المصابيح الصفراء ترسم هالات الطريق الغائمة... وقف مذعورا معترضا للطريق عندما اجتازت إشارات سيارة بالأفق

المعاكس له.. توقفت السيارة على مقربة منه، فتح نافذتها وأطل برأسه الأشهب منها قائلا: إلى أين تمضى يا صاح؟

- أبحث أكثر من ساعتين على أثر للمواصلات

وقبل أن يطلب منه ذلك المعروف فاجأه قائلا: اركب معى، فأنا فى طريقى إلى المدينة الآن.

خلع حقيبته عن ظهره ووضعها فى المقعد الخلفى، بينما جلس إلى جواره.

قال وهو يدير السيارة إلى سرعتها القصوى: ما الذى أتى بك إلى هنا؟

- أعمل بإحدى البنايات، غير أنى اختلفت اليوم مع صاحب العمل الذى بخسني حقى وتركنى أمضى على غير هدى.

- .. أين تسكن؟

- لدى صاحب العمل

- الذى اختلفت معه

- نعم

- أيسمح لك بالمبيت لديه بعد خلافكما؟

- لا، سأستقل القطار عائدا اليوم لبلدتى بالإسكندرية

- أتنوى الذهاب للإسكندرية اليوم؟

- نعم

- يا لحظك، فأنا متجه إليها الآن أيضا.

- حقا؟!

- نعم .. يبدو أنك رفيق رحلتى اليوم.

.. فترة صمت يتجزأ فيها خيالهما السابح فى العتمة الغارقة بالطريق .. ينظر مسترسلا عبر المرآة أمامه فى نظرات خاطفة إلى هذا الغريب الذى استوقفه، بينما الآخر يلتقط نظراته متصنعا الإفلات... يحاول أن يقطع الصمت بتشغيل راديو السيارة، فالتقطت الإشارات إحدى القنوات لعمل درامى، قال الصوت فى تهدج: نعم.. أعلم أن لكل إنسان ملاكه وشيطانه، أكاد ألمحه دوما يرافقنى، يُملى رغباته التى لا مناص من الفرار منها.. أنا قابيل، هابيل أنا، جرح أنا، والأصل سكين.

بحركة مرتعشة، أغلق الراديو، بينما علت وجهيهما سكرات الاشتباه

يجلس متكوما إلى باب السيارة، يمسح الرمال العالقـة فى ثنايـا وجهه، يتخيل ذلك الغريب الذى أوقف لـه السـيارة وأقلـه بـدعوة منه.. (أيمكن أن ينقض على رأسى، ولكن، ما الذى سيجنيه من وراء مسكين مثلى؟!.. أربما يطمع لسرقة عضو من جسمى؟، إنها تجارة مربحة، ويبدو أنه من الأثرياء الذين أربحتهم التجـارة الخبيثـة ... سأنتهى ببقعة بالصحارى، وربما تنهش الضوارى هويتى فـلا يعثـر على أثر منى بعدها)

تتفصد يداه القابضتان على عجلة القيادة عرقا، جففهما بمنديل ألقى به إلى جواره.. يتخيل الآخر، ذلك الغريب الذى أخذته المروءة لإنقاذه من ذلك الفضاء الواسع.. (أيكون قاطع طريق....؟ نظراته الزائغة تَرعد من حولى... لن أنجو إذا منه، سيحرص على الخلاص منى لسرقة السيارة، وسأنتهى إلى بقعة بالطريق مضرجا بالدماء)

تمضى السيارة غارقـة فى وهـم دمائهمـا، بينمـا يجتـاز الفجـر الراكض نحوهما هسيس المدينة الفاضلة.

الرقعة الرمادية

تتمنى وجودا بأحد الأيام... اليـوم ثلاثـاء، الأمـس، غـدا هـو الثلاثاء، تستقر فى محور قارورة أمام عينيه حيث الحماقات تشهدها الجدران.. تتذكر فى ومضةٍ مبهرة الساعات القليلة قبـل أن يختفـى ومعه الأسماء.

تخضلت عيناها بدموع عبثية، تعـود كإنسـان تغمـره الأكفـان، تنزلق فى مخاض النسيان، يتبعها يقين أنها كانت من الأشياء، صورة تُرجع الصدأ المحموم.. تهوى في بقعة رقطاء، حادثها عشقه للرقعة الرمادية، تصاب بـذهول أبـدى، أغلقـت الهـاتف تسـتعيد معجـم أسرارها.. تتمكن من النوم في الرقعة المظلمة.

مــرايا

أمام أحد أبراج العاصمة الزجاجية ، تتهادى إهتزازاته المتنامية فوق قضبانه البالية ... تعكس النوافذ البراقة وجوه العالقين فى الترام

رأت وجهه الخاطف فى المرآة يلمس كتفيها ، يداعب خصلات شعرها المنثور على حقيبتها المثقلة بأحمال كتبها .. تقترب من طعامها البارد، وتدفع يده الخشنة عنها ، أرسل دمعة خافتة أشعلت أخاديد وجهه الغائر .. تُوغِل فى نظرة تحد للجميع ، ولاحقها بأنفاسه المتضرعة ..أنقد محصل الترام أجرته ليدس فى يدها ما بقى من عملته الورقية ، قبضتها فى صمت تبتلع معه طعامها الخشن

قال هامسا : أكملى طريقك ، سأنزل فى هذه المحطة .

اخترق جلبابه الهابطين ، لحظتها تتبعته وهو يعدو بين الجميع عابرا الطريق ..مزق صفير حاد دوي الآلات المرتعشة بأمواج شرر الكهرباء ، ضجر يتعالى ، أعقبه وقفة فجائية ترنح لها كل العالقين ،

تدافعوا إلى النوافذ ليروا الحادث ، تدس رأسها النحيل بينهم، فترى الثوب القديم ، تخترقهم لتستقر بين يديه المرتعشة بأنفاس الرحيل ، تستجدى فضاءها المحيط بالصمت كأنه الماء حين المد.

يتلاشى الترام من مرايا البرج الزجاجية .. تلتفت إلى طفلها القابض على يديها وهو يقضم نفس طعامها الخشن .

رمال متحركة

أوقفتها رمال الشاطيء حيث أثقلت حذاءها، فجلست لتنفض ما تجمع فيهما .. تطايرت ذرات الغبار حولها وأصابت وجهها ، تفرك عينيها بحدة مرات غير أنه لم تجد معها تلك المحاولات ، فاستسلمت لهذا الظلام (الأمر ربما يحتاج للانتظار بعض الوقت)

فى بقعة الضوء المنتشرة حولها ، تحبو إليها الذكريات التى ضاعت بهذا المكان .. قبضت الرمال بكلتا يديها ، تنساب متخللة أصابعها، لتحتكم فى النهاية على اليسير .. طوحت فى الريح ما بقى منها .

تراءى لها كيف كان السباق بينهما على هذا الشاطيء قبل أن يمسكها ليغتصب تلك القبلة التي أضاع بها براءة القصة ، دفعته بعد أن صفعته، واختفت وسط توسلاته .

افترشت مكانها وتوسدت يديها لتغيب فى سبات .. ردد فى

حلمها القصير (أحبك) أفاقت مفزوعة وهى تجاهد لفتح عينيهـا ، فقد كان لهذا الصوت رنين الحياة ، تلفتت حولها فلم تجد شيئا .. الشاطىء يخلو رويدا ، والشمس ترحل فى مغيبها الأزلى .. أقبل إليها مصور الشاطىء يحمل صورتها التى التقطها عند الظهيرة .. نظرت إليها، تدقق النظر، لتفاجأ بالذى يقف على مبعدة منها له الكثير مـن الشبه به .. رحلت، وبكاء طفلة خلفها يستجديها للبقاء .

الطاحونة

تزأر طاحونة غلال من بعيد، يمر فوق التلال نواحها، تخطو عابرة في الظلام تسمع تراتيل الأنين، تجلس ووحشة الجو الكئيب، صمت الدجى.. تمتطى أصداءها الباهتة.

(لن أعود إلى السواقي، أي انفلات من قيودى بعدما خبا الصوت والرجع القديم) ..

مواء قط مذعور يعترض قدميها.. تلمح خلف سياج الفجر بريق طفولتها يركض.. يحمل عصا الحلوى... يلتقطها في الهواء لتستقر بين ذراعيه، تُخفى وجهها في صدره.. يهمس في أذنيها اللحن الجميل... إطراقة الشمس تدوي تحت السنين.. تتلصص ببصر من حديد، وكطائر أفزعه الرحيل، تختفي فى القبو.

الفهـــرس